محمد سعيد العامودي

من تاريخنا

دار مصر للطباعة
٣٧ (أ) شارع كامل صدقي ت ٧٥١٤٧

وإذا كنتُ أرى من واجبى فى هذا المقام أن أشكر الصديق الفاضل صاحب المنهل الأغر على تفضله بكتابة تصديره القيم لهذا الكتاب ؛ فلا أرى مناصا من أن أصارح القارىء العزيز بأن الأستاذ إنما نظر إلى الكتاب بعين الرضا ؛ لذلك أضفى على الكتاب ومؤلفه من ثنائه ما شاءته له هذه النظرة ؛ وما شاءه له خُلُقه الكريم .

* * *

وأخيراً . . . أرجو أن أكون — أيها القارىء الكريم — قد قدَّمتُ إليك شيئاً يستحق عناء القراءة . . . وإلاَّ فحسبى إنى قمت بتنفيذ رغبة إخوان كرام ؛ لم أجد ؛ ولن أجد إلى مخالفتهم سبيلا .

ومن الله نستمد العون والتوفيق .

مكة المكرمة

م . س . ع

Philip K. Hitti

تصدير

بقلم الأستاذ عبد القدوس الأنصاري

صاحب ورئيس تحرير مجلة المنهل الغراء

الكاتب . . .

ليس الصديق الأستاذ محمد سعيد العامودى مؤلف هذا الكتاب ومحبر هذه البحوث ، بالكاتب المجهول فى عالم الأدب والثقافة فى بلادنا حتى يحتاج إلى تقديم أو تعريف إنه فى طليعة الرواد بالنسبة للأدب الحديث فى هذه البلاد .. هو من بناته الأوائل وواضعى أسسه ورافعى راياته فى الآفاق ، وهو مخلص لفنه وفكره وثقافته ، لا يقول إلا ما يراه حقاً ، ولا يلج موالج الزيف مهما تكن البواعث والدوافع قوية أو ملزمة .. يرضى ضميره وتفكيره ويتعمق فى مطالعاته ، ويستلهم كل ذلك فيما يكتب .. وبذلك كله استوى له ما أسميه (كفتى العمق والاتزان) وقد استطاع بما وهبه الله من مران أدبى مصقول ، أن يقول كل ما يريد . . . وفى الحق أن بحوثه فى ميادين التاريخ والاجتماع والصحافة والثقافة بحوث ممتعة مفيدة ، تجمع إلى جمال الأسلوب ، وبهاء الاستعراض ، جمال الدقة ، وبهاء التمحيص ، وهو فى ذلك موفق ، وقلما يتأتى ما وفق إليه — للأدباء الباحثين ، والباحثين الأدباء .

والأستاذ شاعر بعيد النفس عريق الشاعرية ، ولكنه بوصفه « رائداً وبنّاء » رأى أن الشعر لم يُخلَق فى العصر الحاضر ليوجه وليكيف الأمة إلى هذا الحد البعيد المدى الذى هُيِّئ (النثر) له باتساع آفاقه لأن يجول فيه ، فطلق الشعر قولا لا ذوقا ، ونادى بكفرانه به . وله الحق

فى ذلك فان أدب اليوم ، هو أدب السرعة والانطلاق وأدب التحرر من مختلف القيود وهذا ما لا يتسنى لأدب مقيد بالوزن والقافية .. و بغير الوزن والقافية . . . إن لأدب اليوم رسالة كبرى هى التغلغل فى أعماق الحياة إلى أبعد حد ، لضمان إيقاظ خامدها ، و إنهاض جامدها ، وتعديل معوجها وتقويم منآدها ، وتبسيط معقدها ، وكبح جماح متطرفها وترقية منحطها ، وتقديم متأخرها .. وهذا ما كان الأستاذ العامودى من العاملين المخلصين فى حقله ، المجيدين فيه الثابتين فيه . .

ولعلى لا أكشف سراً إذا قلت : إن الأستاذ الكاتب من الأدباء القلة الذين لا يتركون أية مناسبة عالمية تمر ، أو أية عاصفة تهب فى أرجاء الدنيا ، أو أى حدث كبير يقع إلا ويجيل فيه فكره ثم يشرع قلمه ، فاذا به يحبر و يدبج المقالات التاريخية أو الأدبية ، و إذا به يدمج التوجيه الذى يرى توجيه لمواطنيه ووطنه فى طيّات مقاله ، إدماجا سداه ولحمته اللباقة فى الاستعراض . وكل قارئ لما كتب يفطن بطبيعته إلى هذا السر ، و إلى هذا الهدف وهو يصل من ذلك إلى مبتغاه بأسلوب ليس رمزيا ، وليس صريحا ، إنه أسلوب الكاتب القدير فى فنه الذى يراعى الأجواء ويفهم اتجاهات الرياح ، ويعرف كيف يسيّر سفينة بحثه وتوجيهه بين التيارات المتضاربة والجو المغبر المكفهر ، حتى يصل بها آخر الأمر إلى ساحل السلامة والنجاح ..

وهذه الغاية لا يوفى إلى ذروتها إلا كل كاتب موهوب . . ولا أقول غير الواقع ، إذا ما أنا سلكت الأستاذ العامودي في هذا الصف من الباحثين القلائل عندنا وهم الذين نحن أحوج إليهم من سواهم و بخاصة أدباء (الفن للفن) ...

الكتاب :

لقد ظل الأستاذ يمد الأدب في الصحافة الوطنية بمختلف بحوثه في ميادين الأدب البحت في الفترة الأولى من حياته الأدبية ، ثم رأى أن أدب (الفن للفن) لون من ترف الحياة والأدب ومن ثم انصرف إلى (البحث العلمي) يطعمه بأسلوبه وبذوقه الأدبي الرفيع فكان ثاني اثنين من أدبائنا الذين اتجهوا هذا الاتجاه الحميد ؛ أو حاولوا أن يوجهوا الأدب الوطني إلى هذا النحو من الاتجاهات ، وقد وفق الأستاذ وانكب على المطالعة وواظب على كتابة البحوث التاريخية التي لحمتها البحث التاريخي وسداها إيقاظ الوعي الوطني إلى تبني الطريف من طريق إيقاظ ذاتيته واستعراض مميزاته العريقة أمامه على شريط فني ممتاز من القول الجميل ، وجاء هذا الكتاب نتيجة ذلك الاتجاه ، ونتيجة لجولاته في الصحافة في هذا المجال .

ويتألف الكتاب من تسعة بحوث وكل بحث يصح أن يسمى كتاباً بمفرده لأن المعلومات مبسطة فيه تبسيطاً جميلاً ، ومضغوطة

فيه ضغطا جميلاً ، فهى كما قال شاعر العراق الكبير محمد رضا الشبيبى :

وأجمع أقوال الرجال أسدها معان كبارٌ فى حروف قلائل !

فهذا بحث (سياسة المال فى عهد عمر بن الخطاب) هو من البحوث النادرة الموفقة .

ولا نريد أن نمر بهذا البحث الطريف ، دون أن نعلق عليه ، فإن الأستاذ الفاضل أماط لنا اللثام عن مبدأ تدوين الدواوين فى الإسلام بأمر عمر وأبدى لنا أن هذه الدواوين كتبت فى مصر والشام بالقبطية والفارسية حتى حولها عبد الملك الأموى إلى اللسان العربى . . أفياترى بماذا دونت دواوين الحجاز ونجد والجزيرة العربية فى عهد عمر بن الخطاب ؟

ونمضى قدما إلى بحث (الضمان الاجتماعى فى عهد عمر) فإذا البحث ممتع شائق . يكشف فيما يكشف عن ناحية عظيمة من مفاخر الإسلام بتقرير الضمان الاجتماعى فعلياً و بدون تزويق ولا بطء من قبل ألف وثلاثمائة واثنين وسبعين عاما . .

و (أوليات عمر) بحث قيم يشهد لكاتبه بالإخلاص لفنه و بالتوفيق فى درسه . . . فقد استعرض لنا فيه باقات عطرة خالدة من أوليات هذا الخليفة الموهوب الملهم . . فإذا بها أوليات تضع على مفرق تاريخنا أكاليل الفخار الخالد . . . والتوجيه إلى هذا الماضى الذهبى هو من أهداف الكاتب اللبق حتى لا يأخذنا بهرج

المدنية الغربية فتعمى بصائرنا عن فضائلنا الخالدة . فإذا تجاوزنا إلى ما وراء السطور فى هذا البحث القيم الفريد نجد الأستاذ كاتبه إنما يريد التوجيه إلى أن يقتفى المعاصرون الأواخر من بناة الممالك العرب بالأوائل . . فذلك علامة نجحهم الصحيح .

* * *

وهناك بحث (العناصر النفسية فى سياسة العرب) إنه بحث دقيق استعرض فيه الكاتب مؤلفاً للأستاذ شفيق جبرى[1] فى هذا الموضوع ، استعراضاً لم يخل من الكشف عن مآخذ صحيحة دقيقة فى أسلوب متأدب رزين ولكنه عميق قوى ناضج . . وقد كان مجلى هذا النقد الحصيف يتمثل فى موضوع عدم استخلاف عمر . . واستخلاف معاوية رضى الله عنهما . . .

وقل مثل هذا فى مقال (تاريخ العرب الموجز) فهو استعراض ونقد وتمحيص لكتاب الأستاذ فيليب حتى ؛ الذى يحمل هذا العنوان . ومن أجمل النقدات فى هذا المقال موضوع اسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصنيع الحسن بن على فى تنازله عن الخلافة لمعاوية رضى الله عنهما . . لقد أوفى العامودى هذا النقد حقه ، فله شكر التاريخ والتحقيق .

فإذا جئنا للبحث الخاص بنقد كتاب (الموالى فى العصر الأموى) فإننا نجد الأستاذ يكتفى باستعراض بحوث الكتاب ، ولم نره كدأبه يحلل ويعلق وينقد .

---

(١) عميد كلية الآداب فى دمشق .

أما بحثه « من نوادر المخطوطات » فهو من نوادر البحوث التى يحسن العناية باستيعابها وامتثالها فيما يكتبه الكاتبون ، لأنه بحث تاريخى تحليلى مركز ، لكتاب مخطوط يتعلق بالتاريخ القريب المجهول عن بلد الله الحرام . . .

و « من تاريخ الصحافة فى بلادنا » بحث ممتع هو الثانى من نوعه فى هذا الميدان ، والأول هو بحث الأستاذ المحقق رشدى الصالح ملحس الذى استند إليه الأستاذ العامودى فى بعض النقاط . . وقد سجل هذا البحث تكملة ما انتهى إليه الأستاذ رشدى ، فوصل حاضر الصحافة فى هذه البلاد بماضيها .

و « هل الحروب تطوى الحضارات ؟ » بحث اجتماعى مركز جالت فيه يراعة الأستاذ جولة الباحث المتعمق ، ومن الجدير بالذكر أننا كنا نتخوف حين بداية الحرب العالمية الثانية أن تنهار الحضارة الحاضرة على عروشها فكان توجيه (المنهل) لذلك الاستفتاء إلى الأدباء أثراً من آثار الشعور بمرارة ما سيحدث أو ما نتخوف أن يحدث للعالم أجمع نتيجة للحرب المدمرة . . . وقد كان جواب الأستاذ الذى نتحدث عنه حصيفا مطابقا لما حدث ، فلم تنهر الحضارة بسبب الحرب ، بل مضت قُدما إلى الأمام . . .

مكة المكرمة — **عبد القدوس الأنصارى**

سياسة المال في عهد عمر بن الخطاب

سياسة المال ، أو السياسة المالية فى عهد عمر بن الخطاب ، موضوع خليق بالدراسة والبحث فى هذا العصر خاصة ، بعد أن تطورت العلوم والنظم المالية والاقتصادية ، وقطعت شوطا بعيداً من التقدم والنضج ، وأصبح النجاح فى سياسة المال ، المعيار الأول لنجاح الأمم فى سائر مرافقها الحيوية .

وعندما يدرس الباحثون تاريخ الإسلام فى شتى نواحيه الاجتماعية والعمرانية — بله السياسية — يجدون أول ما يجدون فى طليعة مفاخر المسلمين فى الصدر الأول من تاريخهم ما أنشأه هذا الخليفة العبقرى العظيم من أنظمة عديدة فى مختلف الميادين ، وفى رأس هذه الأنظمة دون أى شـك أو مراء ، نظام عمر المالى ، أو بعبارة أخرى : سياسته المالية . .

لقد كان عمر أول من وضع السياسة المالية فى الإسلام ، كنتيجة لابد منها لاتساع الفتوح وانفساح رقعة الدولة فى أيام خلافته الراشدة ، فهو أول من أوجد الدواوين ، وعين أبواب الإيراد والمصرف ، ونظَّم حسابات كل منها . . ثم كان عمر أول من استعمل التاريخ الهجرى ، وعلاقة ذلك بالمال والحساب والسياسة المالية غنية عن البيان .

ويكفى أن نقول إن هذه السياسة العمرية هى التى ظلت نافذة المفعول فى جميع الدول الإسلامية التى أعقبت الخلفاء الراشدين .

وإلى اليوم ما زالت أكثر قواعدها النبراس الذى يستضاء به ، والمبدأ الذى يجرى عليه العمل باستمرار . . ونظرة بسيطة إلى المؤلفات العربية القليلة فى علم المالية تدلنا على ذلك فى وضوح لا يقبل الشك . يقول الأستاذ الكبير « فارس الخورى » فى كتابه القيم (موجز فى علم المالية) : « وهو — أى عمر — الذى وضع أكثر القواعد المالية فلم يجرؤ من جاء بعده على مخالفتها ، فبقى جانب عظيم منها نافذاً فى عهد الأمويين والعباسيين واستمر بعضها إلى الزمن الأخير » .

وقد كان اتساع الفتوح فى عهد عمر كما قلنا ، وتكاثر ورود الغنائم والأموال إلى عاصمة الخلافة فى مقدمة الأسباب التى ألهمت الخليفة الثانى أن يضع أصول وقواعد سياسته المالية . . ولعل أول ما حدث فى هذا الشأن ما يذكره المؤرخون من قدوم أبى هريرة رضى الله عنه إليه من البحرين ، وكان عاملا له هناك : قدم إليه أبو هريرة ، ومعه مال كثير ، فقال عمر : بم جئت ؟ قال بخمسمائة ألف درهم فاستكثر عمر ذلك وقال له : أتدرى ما تقول ؟ قال نعم ؟ مائة ألف خمس مرات . . فصعد عمر المنبر وقال : أيها الناس قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كلنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عدا ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء الأعاجم — يعنى الفرس والروم — يدونون لهم ديواناً ، فقال عمر : « دونوا الدواوين » .

. وكان هذا باعث تدوين الدواوين ، على مثال ما كانت عليه في دولتي فارس والروم ، ومن ثم كانت في بادىء الأمر تكتب بالرومية في الشام ، وبالفارسية في العراق ، وبالقبطية في مصر ، إلى أن جاء الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، فحول كتابة هذه الدواوين إلى اللغة العربية .

وكانت الإيرادات تجمع من الصدقات ومن أخماس الغنائم ، ومن الفيء ، وهو جزية أهل الذمة ومن الخراج ، ومن العشور ، ومن مواريث من ليس لهم وارث من موتى المسلمين . . .

وكانت الصدقات تؤخذ من أغنياء المسلمين على المواشي والذهب والفضة والأثمار والزروع إذا بلغ كل منها نصاباً معيناً ، ثم تُرَدُّ هذه الصدقات إلى فقرائهم على النحو الذي بينه القرآن الكريم في آية : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) .

وكانت أخماس الغنائم تقسم على ثلاثة سهام لليتامى والمساكين وأبناء السبيل . وفي عهد عمر أعيد السهمان الآخران : سهم الرسول ؛ وسهم ذوي القربى إلى بيت المال .

وكانت الجزية تؤخذ من غير المسلمين في البلدان الرومية والفارسية التي افتتحها المسلمون ، وفي أوقات معينة من السنة ، وكانت تختلف

مقاديرها باختلاف درجات الأفراد وآخر ما استقرت عليه فى هذا العهد هو (٤٨) درهما للرجل الغنى و (٢٤) للمتوسط و (١٢) للفقير وكان يعفى النساء والصبيان وأهل العاهات والرهبان من دفع الجزية فيما عدا البلاد التى عقدت شروط الجزية معها ، باتفاق خاص كمصر التى كان يؤخذ على غير المسلمين فيها ديناران عن كل من بلغ الحلم شريفهم ووضيعهم على السواء إلا النساء .

وكان الخراج يؤخذ على الأراضى فى البلدان التى فتحها المسلمون وتركوها فى أيدى أهلها ملكا لهم ، فكانوا يجعلونه أحيانا خراجا موظفا ثابتا كما جرى فى سواد العراق ، وأحيانا خراج مقاسمة ، و بقيت ضياع البطارقة والأمراء المنهزمين ملكا لبيت المال يقبلها العمال و يستثمرونها لحساب الخزانة العامة ، والعشر هو الحصة الشائعة المضروبة على حاصلات الأرض التى أسلم أهلها عليها من أرض العرب أو العجم ، أو ملكها المسلمون عنوة من قوم لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان والمجوس ، ومثلها الأرض التى احتازها المسلمون وقسموها بين الغانمين [1] .

وكان من رأى فريق كبير من أقطاب المسلمين أن تقسم أراضى البلدان التى فتحها المسلمون على المجاهدين باعتبارها من الغنائم . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى موقف عمر أمام أصحاب هذا الرأى . فقد أبى عمر هذا

---

(١) موجز فى علم المالية للاستاذ فارس الخورى .

التقسيم . ووقف وقفته الخالدة . وقفته التي دلت على منتهى بعد النظر .
لقد تحدى عمر فى صرامة وسداد كبار أهل الحل والعقد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال لهم قولته المشهورة : « فكيف بمن يأتى بعدكم من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت بمن عليها ، وحيزت ارثا عن الآباء ما هذا برأى . . » فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ؛ فما الرأى ؟ ما الأرض وعلوجها إلا مما أفاء الله عليهم (أى الفاتحين) فقال عمر : ما هو إلا كما تقول . ولست أرى ذلك . . فإذا اقتسمت أرض العراق بعلوجها . وأرض الشام بعلوجها فبماذا تسد الثغور . ؟ وما يكون للذرية والأرامل ؟ فلما أكثر هؤلاء عليه . واختلف المهاجرون فى هذا . رأى أن يستشير بعض كبراء الانصار . فلما اجتمعوا قال لهم : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم . وأنى أعوذ بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم . لقد شقيت . . ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى . وقد غنمنا أموالهم وأرضهم وعلوجهم . فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام كالشام

والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابد لها من أن تشحن بالجيوش وأدرار العطاء عليهم.. فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الارضون والعلوج ؟ فقالوا جميعا . الرأى رأيك فنعم ما قلت وما رأيت[1] . !

ما أعظمه من موقف رائع سجله التاريخ لعمر فى ذلك اليوم العصيب ! ولقد أثبت الزمن واثبتت علوم المال والاقتصاد كلها فيما بعد أن رأى عمر فى عدم موافقته على قسمة الأرضين كان هو وحده الرأى الناضج السليم .

وكان عمر فى تمسكه برأيه هذا يرمى إلى هدف... كان يرمى إلى أن يكون لدولة الاسلام الناشئة إذ ذاك باب مضمون من أبواب الايرادات الثابتة تشمل فائدته الحاضر والمستقبل معا وأى خطة فى مثل هذه الحال يمكن أن تكفل ذلك سوى ما ارتآه عمر ؟ . إن هذه الخطة العمرية أو هذه السياسية العمرية تكفل الحاضر بما يؤديه لخزينة الدولة سنويا من المال هذا الباب الثابت من أبواب الايراد حيث يصرف هذا الايراد فى توطيد الأمن وفى المحافظة على الثغور وفى غير هذين من مصالح المسلمين ثم هى خطة تكفل المنفعة المستقبلة بلا مراء لأن هذه الأراضى سوف تبقى للذرية وللجيل الذى سيأتى وسوف يبقى للدولة الاسلامية من خراجها الثابت الدائم معين لا ينضب مهما تطاول الزمن .

---

(١) براجع تفصيل ذلك فى كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف .

وشيء آخر أيضاً ...

شيء آخر فطن له عمر ورمى إليه من وراء اتخاذه لهذا الإجراء . . ذلك هو أن يبقى المسلمون كما كانوا من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، متفرغين لمهمتهم الكبرى وهي الجهاد ثم المحافظة على ما افتتحوه من البلدان ، ثم هم بعد لهم من الغنائم ، ولهم من العطاء الدائم الذي يقرره لهم الخليفة ما يكفيهم ، فاما ما عدا هذا .. أما اقتسام الأرضين وامتلاكها — كما شاء القسم الأكبر منهم — فليس هذا من الحكمة في شيء . لأن في ذلك إجحافا محققا يلحق خزانة الدولة . أو بيت المال وهو أحوج ما يكون إلى الموارد الغنية . لكي يمون منها الجميع . و يصرف منها للجميع . ثم لأن في ذلك ظلما للذرية وللجيل الذي سيأتي . ثم فيه .. — وهو الأخطر والأهم — مشغلة للمسلمين عن مهمتهم الإسلامية الأولى .. مهمة الدعوة والإرشاد والجهاد في سبيل الله .

وأخيراً ماذا بعد كل هذا ؟ أم بعبارة أخرى .. هل كان هذا وحده كل ما أراده الفاروق العظيم حينما صمم على تنفيذ هذا الإجراء ؟

الجواب .. كلا بطبيعة الحال و بحكم الواقع . فقد كان عمر يرمى إلى هدف آخر أيضاً وكان هذا الهدف هو مراعاة سكان البلاد الأصليين إلى جانب مراعاته للفاتحين من المسلمين فأراد أن يدع للأولين أراضيهم

يستمرون فى تملكها . و يشغلونها على خير الوجوه أراد أن يدعهم أحراراً وشأنهم فى تملكهم لأراضيهم وتشغيلهم لها .. من جهة تحقيقا لفكرة الإسلام فى الرأفة والرحمة والعدالة الاجتماعية . ومن جهة أخرى لكى يمكن أن يستفاد من هذه الأراضى على أوسع نطاق . ولكى يمكن أن يستخدم هؤلاء السكان كل ما أوتوا من خبرة ونشاط فى استغلال هذه الأراضى بإخلاص فيكون من ذلك إبقاء لمصلحتهم ويكون من ذلك — أيضا — خير ضمان لاستمرار الإنتاج وبذلك يستفيد بيت المال فائدة محققة أقل ماتوصف به هو : الثبات والاستقرار . .

وكان من متممات هذه السياسة فى ترك أراضى البلدان المحتلة لأصحابها الأصليين أن حظر عمر أيضاً بيع هذه الأراضى كما حظر على العرب شراءها . . .

وفى هذا الصدد يقول سيد أمير على فى كتابه (مختصر تاريخ العرب) : وقد استطاع — أى عمر — بثاقب فكره و بعد نظره وهى ميزة كانت تنقص خلفاء العصور المتأخرة أن يدرك أن توطيد دعائم الامبراطورية وترقيتها ماديا إنما يتوقفان على رفاهية طبقة الفلاحين من سكان البلاد الأصليين وتحقيقاً لهذه الغاية منع بيع العقار والأراضى الزراعية فى الأمصار المحتلة كما سن قانونا يحظر فيه على العرب امتلاك الأراضى والضياع .

ويقول (نيكلسون) فى كتابه (تاريخ العرب الأدبى) مشيراً إلى ما كان من النتائج لهذه السياسة : « . . . وفى ظل النظام الذى سنه عمر انتظمت الأمور فى بلاد العرب بعد أن طهرت من أدران الشرك وأصبحت مورداً خصباً وقاعدة ثابتة لتموين الجيوش الإسلامية الدائمة وصار العرب المقيمون فى المقاطعات المفتوحة أساساً لتموين القوات الحربية على الإقامة فى معسكرات كبيرة والانفاق عليهم مما يجبى من غير المسلمين وكان من نتائج هـذه المعسكرات أن قامت مدينتان ذواتا أثر بارز فى التاريخ الأدبى هما البصرة عند ملتقى دجلة بالفرات والكوفة التى ظهرت إبان ذلك الحين أيضا على الفرع الغربى للفرات وعلى مقربة من الحيرة » .

وقد كان لخراج هذه الأراضى الواسعة الفضل الأكبر فى تدعيم المالية العامة وكان من أثره أن أحدث عمر (نظام العطاء) فوسع بذلك على المسلمين) ورفع من مستوى المعيشة وقرر الرواتب للعمال والقضاة والمؤذنين وغيرهم . . ولقد وصل إيراد العراق وحده فى سنة ٢٠ هـ إلى مائة وعشرين مليون درهم .

وكان من منابع الإيرادات العامة فى ذلك العهد (العشور) وكانت تؤخذ بنسبة عشر المحصول على الأراضى الزراعية التى لا يؤخذ عليها خراج ؛ ومن العشور أيضاً ما كان يؤخذ رسوماً على العروض التى يأتى

بها التجار من البلدان الأجنبية وكانت تؤخذ بنسبة ربع العشر من المسلمين ؛ ونصف العشر من الذميين ؛ و بنسبة العشر من غير الذميين .

كتب أبو موسى الأشعرى إلى الخليفة عمر : « إن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر » فكتب إليه عمر :

« خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين « وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المائتين شىء فاذا كانت مائتين ففيهما خمسة دراهم وما زاد فبحسابه »

وفى كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف أن أول من بعث عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه على العشور زياد بين جدير فأمره أن لايفتش أحدا وما مرّ عليه من شىء أخذ من حساب أربعين درهما ، درهما واحداً من المسلمين ومن أهل الذمة من كل عشرين واحداً ؛ ومن لاذمة له العشر . .

وواضح أن عمر بن الخطاب إنما أراد من تقرير هذه العشور أن يعامل التجار من غير المسلمين بمثل ما يعامل به النصارى تجار المسلمين فاذن قد سبق عمر إلى تطبيق المبدأ الذى أصبح يطلق عليه اليوم « مبدأ المعاملة بالمثل » فى القوانين الدولية . .

وإلى جانب العشور ، كانت هناك منابع أخرى للايراد ، كمواريث من لا وراث لهم ، وكغيرها مما تأتى أهميته فى المكان الثانى . .

ولم يغب عن ذهن عمر ، وقد أخذ على نفسه أن يضع الأصول والقواعد لمالية المسلمين ، أن يضع الضمانات الواجبة للمحافظة على الأموال العامة ، فهو علاوة على ما اشتهر عنه من صرامته وشدته مع كل عامل من عماله ومراقبته لكل حركة وسكنة من حركات وسكنات هؤلاء العمال وتدقيقه فى كل ما يعرض عليه من شكاوى وغيرها علاوة على كل ما ذكر فقد أحدث لأول مرة نظام التفتيش المالى . . واختار أول ما اختار شخصاً معيناً هو « محمد بن مسلمة » اختاره لاقتصاص أخبار العمال ، وتحقيق الشكايات التى ترد عنهم ، وكان يبعث لكل عمل أناسا مخصوصين ، فمنهم من يتولى تقدير الخراج ومنهم من يقوم باحصاء الناس ومنهم من يوكل إليه مساحة الأرض ، ومراقبة جباية الأموال ، يقول الجاحظ وهو يصف دقة عمر ويقظته فى رقابته لعماله : « إن علم عمر بمن نأى عنه من عماله كعلمه بمن بات معه على مهاد واحد ، وعلى وساد واحد ، فلم يكن فى قطر من الأقطار ولا فى ناحية من النواحى عامل إلا وعليه عين لا يفارقه ، فكانت الفاظ من بالمشرق والمغرب عنده فى كل ممسى ومصبح ، وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى عماله ، حتى كان العامل منهم يتهم أقرب الخلق وأخصهم به . . » ويقول المغيرة

بن شعبة — وهو من هو فى الدهاء — : إنه — أى عمر — كان أفضل من أن يَخدَع ، واعقل من أن يُخدع !

وقد شرع عمر فى استعمال التاريخ الهجرى ، بعد أن ظل المسلمون يؤرخون بالاحداث الشهيرة لديهم كما كان العرب قبل الإسلام ، يصنعون ، وكان بدء استعمال هذا التاريخ فى سنة ١٦ للهجرة بعد أن أشار عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه بأن يجعل التاريخ من السنة التى هاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وفى السنة الثامنة عشرة من الهجرة ضرب عمر الدراهم على نقوش الدراهم الفارسية وكانت متداولة فى عهد عمر ، وقبل الإسلام كان العرب يستعملون نقود فارس والروم من دراهم ودنانير .

* * *

وبعد . . فهذا هو عمر فى سياسته المالية !

بل هذا هو عمر الفاتح العظيم !

الفاتح الذى لم تكن فتوحه وقفا على ميدان واحد فحسب . . . وإنما شملت فتوحه كافة ميادين الحرب والسلام . . . وكان فتحه الموفق فى ميدان التأسيس المالى للدولة الإسلامية إبان تكوينها فى طليعة هذه الفتوح !

عمر بن الخطاب والضمان الاجتماعي

١

من الكلمات التي شاعت كثيرا فى هذه الأعوام الأخيرة : كلمة « الضمان الاجتماعى » وقد أصبح لهذه الكلمة مدلولها الخاص اليوم ، فهى تعنى أن الدولة فى هذا العصر يعتبرها الناس مسؤولة عن رعاياها فى نطاق أوسع مما كانت عليه هذه المسؤولية فى العهود الغابرة . . وأن عليها واجب السعى لتحسين وتسهيل معيشة هؤلاء الرعايا بصورة عامة ، وليس هذا فحسب بل أن على الدولة أن تؤمن لكل فرد قادر على العمل عملا . . إذا لم يستطع هو نفسه أن يؤمن ذلك العمل . . — وبهذا وحده — يمكن أن يتاح للدولة — أيا كانت — أن تقضى على ما يسمونه (الفقر) أو (العوز) أو بعبارة أخرى . يمكنها أن تقضى على عدو الإنسانية رقم (١) ؛ وبهذا أيضا لا يمكن أن يشعر أى فرد من المواطنين أنه « كمية مهملة » فى المجتمع الذى يعيش فيه ؛ أو أنه عالة على هذا المجتمع ، أو أن هذا المجتمع قد اضطره إلى أن يسأل الناس الآخرين . فأن شاؤوا أعطوه وإن شاؤوا حرموه . . .

وأما غير القادرين . . . أو بتعبير آخر ؛ أما العاجزون عن أن يقوموا بأى عمل ما ؛ لأى سبب من أسباب الشيخوخة أو المرض ،

وأما غيرهم وغيرهم من الأرامل واليتامى ، وكل من ليس له أى إيراد يكفيه شر الحاجة ؛ فهؤلاء جميعا تكفلهم الدولة بمالها من حق السلطة على الأموال العامة ، و بما عليها من الواجبات والالتزامات نحو كل فرد وكل جماعة من أفراد الأمة وجماعاتها . . .

وفكرة الضمان الاجتماعى هذه . . لنا أن نقول عنها إنها (حدَث جديد) بالنسبة لعالم اليوم ، والواقع أن هذه الفكرة فى معناها المفهوم هذا ، لم تبرز أكثرها ما برزت إلا من خلال أحداث الحرب العالمية الثانية ، وعلى الخصوص عندما ظهر فى بريطانيا «مشروع بيفردج» المشهور وهو مشروع يهدف إلى التأمين الاجتماعى بكل ما أصبحت ترمى إليه هذه الكلمة ومعلوم أنه فى أعقاب تلك الحرب ، وعندما بدأ النزاع يشتد بين المعسكرين الديموقراطى والشيوعى ، أخذت كلمات « الضمان الاجتماعى » و « التأمين الاجتماعى » « العدالة الاجتماعية » تتوغل فى أذهان الجماهير وكان من ضمن مقررات هيئة الأمم المتحدة — كما هو معروف — أن أصبح لها قسم خاص بالأمور الاجتماعية والدراسات الاجتماعية ، وتبارت معظم الحكومات فى هذا الميدان ، فأنشئت كل منها فى بلادها وزارة خاصة للشئون الاجتماعية . . .

ولقد سبقت مصر الشقيقة غيرها من أقطار العروبة ، فوضعت

أضخم مشروع للضمان الاجتماعى فى عام ١٩٥١ على يدَ وزيرها الشاب ، الدكتور أحمد حسين .

ويتضمن مشروع الضمان الاجتماعى المصرى تخصيص رواتب للأرامل والأيتام والعجَزة إلى جانب توفير العمل للقادرين ، وفى صحف مصر الواردة فى هذا الشهر (فبراير ١٩٥٢) أن وزارة الشؤون قد شرعت فى تطبيق هذا المشروع فى مدينة القاهرة بعد أن سبق أن عممته فى العام الماضى فى جميع أنحاء القطر ، وبذلك يكون هذا المشروع قد شمل القطر المصرى جميعه بدون استثناء . . .

***

لقد قلت فى أول هذا المقال أن فكرة الضمان الاجتماعى هذه إنما هِى (حدَث جديد) بالنسبة لعالم اليوم ! وأنا أعنى بعالم اليوم ؛ هذا العالم الذى يقول عن نفسه أنه العالم المتحضر أو العالم المتمدن ، أو العالم الذى بلغ فيه الفكر والعلم أقصى المراحل فى التقدم والارتقاء . .

ولكن . . هل فكرة الضمان الاجتماعى تعتبر حدَثا جديداً كذلك بالنسبة للتاريخ الإنسانى ؟ أو بالنسبة لتاريخ العرب وتاريخ المسلمين . ؟

إن هذا التاريخ يقول بأفصح العبارات : كلا ! ليست فكرة

الضمان الاجتماعى حدَثا جديداً فى هذا العالم ، بل ليست فكرة الضمان الاجتماعى شيئاً تمخضت عنه عبقرية العصر الحديث ، وإنما فكرة الضمان الاجتماعى فكرة مسبوقة . . .

ولقد جاءت أول ما جاءت عن طريق الإســلام ! وكان عمر بن الخطاب خليفة المسلمين العبقريِ العظيم أول من أتيحَ له — بعد أن اتسعت رقعة الإسلام — أن يقوم بتحقيق أول مشروع للضمان الاجتماعى . . بطريقة فذة مثالية وفى أسمى صورة عرفها تاريخ الإنسان !

إن الإسلام هو الذى أوجد لأول مرة فى تاريخ العالم ، فكرة الضمان الاجتماعى . «وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم» والإسلام — ولا فخر — هو الذى جعله (حقاً) وليس (إحسانا) . . . وكان الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يتولى تطبيق ذلك على أكمل وأدق ما ينبغى أن يكون ، وعلى مثل ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، سار خليفته الأول أبو بكر الصديق . . .

وفِى العهد النبوىِ الكريم ، وفِى عهد خليفته الأول رضى الله عنه كان كل شىء يجرى بسيطاً . . لأن الدولة لم تتسع بعد . . . من أجل هذا لم تكن هنالك أية نظم أو أية قواعد لتدوين ما يرد من أموال الدولة ، ثم تدوين أنواع النفقات ، فلما جاء عهد عمر . .

وازدادت الفتوح واتسعت الدولة واحتاجت تبعاً لذلك إلى أن تضع لنفسها من الأنظمة الجديدة ما يتلاءم وحياتها الجديدة . . رأى هذا الخليفة العظيم أن يساير هذه الروح ، وأن يضع الأسس لهذه الدولة الإسلامية الناشئة ، فما هو إلا أن بدأ أول ما بدأ بإنشاء الدواوين على مثال ما كانت عليه في فارس والروم ، وما هو إلا أن أرّخ التاريخ ، وما هو إلا أن منع تمليك الفاتحين المسلمين أراضى البلدان المفتوحة وصمم أن تكون هذه الأراضى ملكاً لأصحابها الأصليين على أن يؤدوا لبيت المال خراجا سنويا . لماذا كل هذا ؟ ! لكى ينشىء للدولة الإسلامية نظاماً ماليا ثابتاً مرتكزاً على دعائم قوية . .

وكان هذا الإجراء المالى الخطير من جانب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول مادة رئيسية مما أخذ على نفسه أن يرسى قواعده للمسلمين من برنامج يحقق كل ما تنطوى عليه كلمة ضمانة اجتماعية ! !

أجل . . لم يكن تدوين عمر للدواوين ، وتأريخه للتاريخ ، وتحريمه تمليك الأراضى المفتوحة وإصراره على إبقائها لأصحابها لكى تستفيد المالية من خراجها السنوى الوفير . لم يكن كل ذلك إلا تمهيداً لقيامه بأول عمل ضخم فى ميدان التأمين الاجتماعى ، على أرسخ القواعد والنظم ، مستلهما فى ذلك تعاليم الإسلام وما سبق أن بدأ به الرسول وتابعه فيه خليفته الأول أبو بكر الصديق .

إن التاريخ ليسجل بمداد الفخر والإعجاب أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من وضع نظاماً كاملاً للضمان الاجتماعى ، على أساس تعاليم الإسلام ، وكان أسلوبه البالغ المدى من حيث الدقة والرأفة والحزم فى تطبيقه لهذا النظام الكامل ، من أروع ما تحدث به الناس فى الشرق والغرب على مر العصور .

٢

كانت المادة الأولى من مواد هذا النظام إنشاء الدواوين وتقييد أسماء الناس . . وفرض العطاء لهم جميعا ، على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، فلم يدع عمر جماعة من المسلمين إلا وفرض لهم من هذا العطاء ، وكانت قاعدته تقديم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهل السابقة فى الاسلام فبدأ بأمهات المؤمنين — أزواجه صلى الله عليه وسلم — فكتب لهن فى عشرة آلاف درهم ، وجعل عطاء عائشة رضى الله عنها اثنى عشر ألفاً . . ولعلى بن أبى طالب خمسة آلاف ، ومثل ذلك لمن شهد بدراً من بنى هاشم . . ثم أتبعهم بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وفرض لكل منهم خمسة آلاف درهم فى كل سنة ، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء ، وفرض لمن كان له إسلام كاسلام أهل بدر ومن مهاجرة الحبشة ممن شهد أحُداً أربعة آلاف ، وفرض لأبناء البدريين ألفين إلا حسنا وحسينا فإنه ألحقهما بأبيهما ، ففرض لكل واحد منهما خمسة

آلاف وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل منهم ثلاثة آلاف درهم ، ولمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين ، وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين كفرائض مسلمة الفتح ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وهنا يعترض ابن الخليفة عبد الله بن عمر ويقول لأبيه :

« فرضت لى فى ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة فى أربعة آلاف ، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة » . فيقول عمر : « زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ! وكان أبوه أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك! ! »[1] .

وهكذا يمضى عمر فى تعميمه لهذا العطاء . فيفرض لباقى طبقات الأمة على منازلهم وقراءتهم القرآن ، وجهادهم ، ثم يجعل من بقى من الناس بعد هؤلاء باباً واحداً ، فيلحق من جاء ، من المسلمين بالمدينة فى خمسة وعشرين دينارا لكل رجل ، ويفرض لآخرين معهم ، ويفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق . لكل رجل ما بين ألفين ، إلى ألف ، إلى تسعمائة ، إلى خمسمائة ، إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحدا عن ثلاثمائة . . ثم يقول : « لئن كثر المال لأفرض لكل رجل أربعة آلاف درهم[2] »

وكان للنساء المهاجرات جميعهن نصيبهن من هذا العطاء . فرض عمر لكل منهن ثلاثة آلاف درهم ، وكتب له عمال أهل العوالى ، فكان

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان .   (٢) المصدر السابق .

يجرى عليهم القوت [1] وكان يفرض للمنفوس مائة درهم فاذا ترعرع بلغ به مائتى درهم فاذا بلغ زاده . . وكان إذا أتى باللقيط فرض له مائة، وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ثم يزيده من سنة إلى سنة ، وكان يوصى بهم خيراً ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال [2] .

وفى فتوح البلدان للبلاذرى . أن عمر بن الخطاب ، كان يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قُديد فتأتيه بقديد فلا تغيب عنه إمرأة بكر ولا ثيب ، فيعطيهن فى أيديهن ... ثم يروح فينزل عسفان فيفعل ذلك أيضاً حتى توفى .

وجاء إلى عمر خالد بن عرفطة العذرى ، فسأله عمر عما وراءه ، ؟ فقال خالد : تركتهم يسألون الله لك أن يزيد فى عمرك من أعمارهم !! ما وطئ أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان ، أو خمس عشرة مائة وما من مولود ذكراً كان أو أنثى إلا ألحق فى مائة وجريبين فى كل شهر ، قال عمر : « إنما هو حقهم وأنا أسعد بأدائه إليهم لو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه .. ولكن قد علمت أن فيه فضلا فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء أبتاع منه غنماً ، فجلها بسوادهم ، فإذا خرج عطاؤه ثانية ابتاع الرأس والرأسين فجعله فيها ، فإن بقى أحد من ولده كان لهم شىء قد

(١ ، ٢) المصدر السابق .

اعتقدوه فأنى لا أدرى ما يكون بعدى ، وأنى لأعم بنصيحتى من طوقنى الله أمره ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : من مات غاشاً لرعيته لم يرح ريح الجنة ! ! ».

أجل .. هكذا يقول عمر . . . إن ما أعطاه للمسلمين إنما هو حقهم ؛ وأنه أسعد بأدائه اليهم . . ثم ماذا أيضاً ؟ ! إنه يرى أن فى هذا العطاء زيادة عن حاجتهم ، فيود لو أنهم يعملون على استثمار مايزيد عن حاجتهم ، من عطائهم ليبقى لأولادهم من بعدهم .. بمثل هذه الروح المثالية كان عمر يهتم بأمر المسلمين ؛ و بمثل هذا العطف الخالص كان عمر يطبق ضمانه الاجتماعى فى غير منّ وفى غير استعلاء . . فأى ضمان اجتماعى حديث يرتفع إلى مستوى ذلك الضمان الاجتماعى العمرى ؟! بل أى حقوق للانسان — فى العصر الذى يتبجح فيه متبجحون بإعلان حقوق الإنسان — يمكننا أن نقول عنها إنها حقوق معترف بها تماما ، كما كانت عليه الحال فى عهد عمر بن الخطاب .

٣

. . وفى الواقع أن كل ما شوهد فى هذه السنوات الأخيرة ، من مشروعات مختلفة للضمان الاجتماعى على ما اشتملت عليه من تنظيم دقيق وما اتسمت به من روح الرغبة فى القضاء على الحرمان . . فى الواقع أن كل هذه المشروعات لايمكن أن يقال عنها أنها تشبه فى قليل أو كثير ما سبق أن حققه فى هذا المجال (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه . قبل أربعة عشر قرنا من الزمان . . ونظرة واحدة مقارنة إلى الضمان الاجتماعى لعهد الفاروق العظيم ، وإلى المشاريع الضمانية اليوم ، ترينا أى ضمان مثالى كان ضمان عمر . . وأى بون شاسع كان بينه وبين هذه الضمانات العصرية . . !

وأى مثالية أروع من هذا الذى أتاه عمر — فى القرن السابع للميلاد — من إغداق عطائه ، حتى للمنفوس ، حين يفرض له مائة درهم فاذا ترعرع بلغ به مائتى درهم ، فاذا بلغ زاده .. وهكذا . ؟

وأى عطف إنسانى أبلغ من أن يذهب الخليفة بنفسه إلى القرى البعيدة ، حاملاً معه سجلات العطاء ، فلا تغيب عنه امرأة ، بكر ولا ثيب ، فيعطيهن فى أيديهن ، دون أن يفكر فى أن يعهد بذلك

إلى « باحث اجتماعى » أو أى نوع من أنواع الموظفين كما هو اليوم فى البلدان التى أنشئت فيها وزارات الشئون الاجتماعية . ؟

حتى أهل الذمة شملهم عطاء عمر . . مرّ بشيخ منهم يسأل على أبواب المساجد ، فقال له : ما أنصفناك ، أخذنا الجزية منك فى شبيبتك وضيعناك فى كبرك ، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يقوم بأمره .

وهذا العطاء المنظم الشامل ؛ أتراه كان كافياً فى نظر عمر لكى ينام ويستريح ؟ !

الحق أن عمر لو أراد أن يقف عند مجرد إنشائه لديوان العطاء ، وفرضه لما فرضه من أعطيات شملت القاصى والدانى مع ما صاحب ذلك من رقابة شديدة صارمة كان يتولاها هو دون أن يكل أمرها إلى غيره . الحق أنه لو أراد أن يقف عند مجرد فرضه للعطاء ، ومراقبته لتطبيقه . . لكان بإمكان التاريخ المنصف أن يقولها كلمة مدوية : « إن عمر قد أدّى واجبه كاملاً غير منقوص نحو ربه ونحو رعاياه أجمعين . . »

غير أن عمر ؛ فى شدة حساسيته ويقظته ، وإدراكه التام لحقيقة ما يمكن أن يقع من خلل وإهمال فى كل مجتمع مهما كانت النظم القائمة دقيقة ، ومهما كانت الرقابة على تنفيذها دقيقة ، إن عمر — وهو هو هذا الرجل — ما كان يمكن أن يكفيه كل هذا العمل الضخم ، وما كان يمكن أن يكفيه أن يقول عنه التاريخ ما يقول . . إن عمر

ما كان يمكن أن يكفيه أن يضع نظاما ، ثم يسهر على مراقبة تطبيقه فحسب . . إنما يريد عمر شيئاً عظيما وراء هذا كله ، يريد أن لا يبقى فى رعيته ذو حاجة ، ولا يبقى فيها محروم . . إن عمر ليشعر من أعماق نفسه أنه مسئول عن كل فرد من أفراد هذه الرعية ، بل أكثر من ذلك ، مسئول حتى عن الحيوانات التى هى فى حوزة هذه الرعية، فأى شىء وراء هذا ، إلا التعب والعرق والدموع ؛ وأى شىء وراء هذا إلا أن يسهر الليل والناس نائمون ؛ وأى شىء وراء هذا إلا أن يجعل من أوليات أعماله أو أخريات أعماله فى كل ليلة أن يتجول فى المدينة ، لايدع ناحية من نواحيها دون أن يمر بها ، لعله يجد محروماً نسيه الخليفة فما خصه بنصيبه من العطاء ، أو لعله يجد ذا حاجة ، لم يكفه نصيبه من العطاء فيمده بما يكفى حاجته ، أو لعله . . أو لعله . . ؟ ؟

ولعل حادث تلك المرأة وصبيانها و إسعاف عمر إياهم فى ليلة من تلك الليالى ، لعل ذلك الحادث من أشهر ما سجله التاريخ لعمر . . وما أكثر ما سجله التاريخ لعمر من نظائر لهذا الحادث النبيل !

ومن هذه الحوادث أيضاً : أن طلحة رأى عمر خارجا فى سواد الليل فتتبعه مستخفيا فدخل عمر بيتا ورجع فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت و إذا بعجوز عمياء مقعدة . . فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيك ؟ قالت : إنه يتعاهدنى منذ مدة طويلة ، يأتينى بما يصلحنى إلى آخر ما قالت .. فقال طلحة ثكلتك أمك ياطلحة أعثرات عمر تتبع ؟ !

ولقد أشرنا إلى ما فرضه عمر من عطاء للمنفوس .. فاقرأ هذا الحادث وهو قد يدلك على السبب الذى جعل عمر يفرض هذا العطاء :

سمع عمر بكاء طفل آخر الليل ، فأتى أمه فقال : إنى لأراك امرأة سوء ؛ مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ! قالت يا عبد الله : قد أضجرتنى منذ الليلة ، إنى أريضه على الفطام ، قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض لرضيع ، وإنما يفرض للفطيم ، قال عمر : وكم له ؟ قالت : إثنا عشر شهراً ، قال : لا تعجليه وذهب فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء عليه ، فلما سلم قال : « يا بؤسا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين ! . . . » ثم أمر فنادى أن لا تعجلوا أولادكم عن الفطام فانا نفرض لكل مولود في الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق كافة ...

ومما قاله رضى الله عنه وكان ذلك في آخر سنة من خلافته :

« إن عشت لأسيرن فى البلاد حولا فأقيم فى الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها ، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع عنى ، أما هم فلا يصلون إلىّ . وأما عمّالهم فلا يرفعونها إلىّ » . .

وفي عام الرمادة حين أجدب الناس وجاعوا من قلة المطر ، رآه الناس لا يأكل الزيت حتى تغير لونه وكان يمد الأعراب بالإبل والقمح والزيت حتى محلت الأرياف كلها وقام عمر يدعو لهم أن يرزقهم الله

فاستجاب الله له ، فقال حين نزل الغيث : « الحمد لله ، والله لو أن الله لم يفرجها ما تركت أهل بيت من المسلمين أهل سعة إلا أدخلت عليهم معهم عدادهم من الفقراء فلم يكن إثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم واحدا . . » .

وفي ذلك العام اشترت امرأة عمر شيئاً من السمن بستين درهما ، فقال عمر : ما هذا ؟ قالت : هو مالى ، ليس من نفقتك . فقال لها : ما أنا بذائقه حتى يحيا الناس .

وكان عام الرمادة من أشد ما مرّ على المسلمين هماً وهولا . . غير أن ما عالج به عمر هذه الشدة وما ساس به أمور الناس ذلك العام ، وما قام به من إشراف دقيق على التموين العام للمسلمين وما أبداه إلى جانب ذلك من تقشف إلى أبعد حدود التقشف . . كل ذلك كان له أثره فى تخفيف وطأة هذه الازمة إلى أن أزاحها الله .

ومما أجراه عمر فى ذلك العام أن كتب إلى كل من أبى عبيدة فى الشام وعمرو بن العاص فى مصر يستغيثهما ، فأرسل إليه أبو عبيدة أربعة آلاف راحلة عليها الطعام فقسمها بين أهل المدينة وما حولها من القرى . . وكتب إليه عمرو : لبيك يا أمير المؤمنين ! قد بعثت إليك بعير — أى قافلة — أولها عندك وآخرها عندى فوسع بها عمر على الناس .

وعام الرمادة كان السبب فى أمر عمر لعمرو بن العاص أن يحفر خليجاً يجرى به ماء النيل حتى بحر القلزم ، لنقل ما يلزم الحرمين من المؤونة والميرة ، فحفره وسير فيه المراكب تحمل الطعام إلى الحجاز .

وقد كان عمر فى عام الرمادة أعظم الناس غما لما أصاب المسلمين من هذه الضائقة حتى قيل عنه : لو لم يرفع الله سبحانه المحل عام الرمادة لظننا عمر يموت هماً بأمر المسلمين .

* * *

و بعد .. فهذا هو أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه فيما خلده له التاريخ فى صفحاته البيض من إيجاده لنظام العطاء ؛ أو كما نسميه اليوم « الضمان الاجتماعى » على إختلاف كبير واضح بين هذا وذاك . . بين نظام عمر ، وأنظمة اليوم !

ثم هذا هو عمر . فى دقة رقابته لتنفيذ هذا النظام ثم دقة تحريه لما وراء تنفيذه إياه . . وأخيراً هذا هو عمر فيما كان يقوم به من جولاته الليلية وفيما كان يسوس به أمور المسلمين فى أوقات الشدائد والأزمات مما يدخل كله تحت كلمة « ضمان » لا بالمعنى المعروف المصطلح عليه فى هذا الزمن الأخير .. و إنما فى أوسع وأشمل ما تؤديه من المعانى الكريمة « كلمة الضمان » .

مِنْ أوليات عمر

ما أجمل ما كتب الكاتبون ؛ ويكتبون ، عن سيرة عمر بن الخطاب ، وعن أعماله الجليلة ذات الأثر الخالد فى تاريخ الإسلام !

فبعد الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه لا أظن عظيما فى الإسلام . أفاض المؤرخون والكاتبون فى الإشادة بما كان له من قوة الشخصية ، وخالد الآثار كما أفاضوا فى الكتابة عن عمر ؛ وعن شخصية عمر ، وعن تاريخ عمر ، وقد حفل تاريخه بكل عظيم ورائع وجليل !

والحق لقد ملك عمر من إعجاب المفكرين والمؤلفين والباحثين والشعراء فى الشرق والغرب ما لم تملكه أية شخصية عظيمة أخرى ، وأكبر الظن أنه لن تنفد مادة الحديث عن كل ما يتناول هذا الجانب أو ذاك . . . من جوانب الفاروق العظيم !

ذلك لأن العظمة النفسية ذات الجوانب المتعددة ، والشخصية الكاملة القوية ، المتأصلة فيها أدق المعانى الخيوية والخصائص الإنسانية الراقية ، وأسمى المواهب والملكات والميول ، وأشرف النوازع إلى الخير وإلى إتيان كل ما هو جليل وحميد مما ينفع الناس ، ويرتفع بحياة الأفراد والجماعات على السواء . هذه العظمة لا يمكن أن يكون الكلام عنها معاداً أو مكروراً لأن البحث فيما تتميز به من خصائص

وتنفرد به من آثار . إنما توحيه خصائص العظمة نفسها وآثارها . قبل أن يوحيه أي حافز آخر من حوافز المناسبات . .

وما أكثر النواحي والسمات العمرية ذات الطابع الخاص . وما أكثر ما كان يبدو عمر (أمير المؤمنين) مصلحاً ومجدداً ومنشىء دولة ، كأعظم ما يكون أولئك القلائل المصلحون ، وأولئك الذين أنشأوا دولاً كبرى فى القديم والحديث !

لقد كان شعاره التجديد دائماً . . لهذا لم يكن من الغريب أن ينشأ فى عهده من النظم الإدارية والمالية ما كان بعضه مقتبساً من أنظمة الفرس والروم ، حينما اقتضت مصلحة الإسلام هذا الاقتباس .

ومن مآثر عمر ، وهو ما كان بالطبع نتيجة من نتائج نزوعه إلى التجديد وإلى كل ما من شأنه أن ينأى بالمسلمين عن مواطن الركود والجمود ، أقول من مآثر عمر أو ابتكاراته كما يجب أن توصف بحق : هذا الذى اصطلح المؤرخون فيما بعد على أن يسموه « أوليات عمر » .

فهذا الشىء الذى أسماه المؤرخون (أوليات عمر) إنما هو صفحة ناصعة مجيدة من تاريخ ابن الخطاب لأنه عدا ما امتازت به من وصفها بالأولية ، فقد كانت هى فى حياة عمر وفيما بعدها ذات أثر كبير فى تطور حياة المسلمين الاجتماعية وغيرها ، على توالى العهود والعصور .

فما هى هذه الأوليات ؟ إنها أشهر من أن تذكر ونحن . . إذ نحاول فى هذا المقال السريع أن نشير إلى بعض هذه الأوليات فإنما نرمى إلى أن نأتى بأمثلة منها . . فى شىء من الإيضاح ، وفى شىء من التبويب ، وفى شىء من التفسير للظروف التى أحاطت بها ، والعوامل التى أوجبت إحداثها .

كان من أول أعمال عمر فى السنة الأولى من خلافته إجلاؤه نصارى نجران من الجزيرة العربية . بعد أن ثبت أنهم نقضوا عهدهم ، وخالفوا ما نصت عليه معاهدتهم مع الرسول « صلى الله عليه وسلم » وما اشترط عليهم فى هذه المعاهدة من الامتناع عن تعاطيهم للربا خصوصا وأن ضرر تعاطيهم لهذه التجارة المحرمة فى الإسلام ، ما كان يسلم منه بحال أولئك المجاورون لهم من العرب والمسلمين ، ولم يكن يجرؤ هؤلاء النجرانيون فى حياة النبى « صلى الله عليه وسلم » أن يرتكبوا هذه المخالفة الصريحة لما عاهدوه عليه ، و إنما بدأوا بذلك فى حياة الصديق ، ولم يكن يغيب عن بال أبى بكر رضى الله عنه وهو ذلك الخليفة البعيد النظر ما فى هذا العمل من خطر على كيان الدولة الناشئة ، وما فى هذا النقض المشين لمعاهدة كفلت لهم كل حقوقهم ، من عدوان و بغى ، ومن إسراف فى الشر . . ولكنه لانشغاله فى مدة خلافته القصيرة بما هو أكبر أهمية ، وأشد خطراً . . لم ير من

الحكمة أن يتعجل الأمور ، وأن يبادر إلى إجلائهم من الجزيرة على النحو الذى تم فيما بعد فى خلافة الفاروق .

وهنا يجب أن نتأمل ؛ كيف تم هذا الإجلاء . وكيف كان عمر المملوء قلبه إيماناً وحناناً وعطفاً . . كيف كان عمر حريصاً كل الحرص على أن يكون هذا الإجلاء فى أروع صورة مثالية ، على ما كان يحتمه الموقف إذ ذاك من شدة قد تكون هى فى حالة كهذه الحالة ضرورة من الضرورات السياسية لو أن غير عمر كان هو الذى نفذ هذا الإجراء .

بعث عمر فى السنة الأولى من خلافته « يعلى بن أمية » إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران ؛ وأن يعاملهم بالرأفة و يشترى أموالهم و يخيرهم عن أرضهم فى أى أرض شاءوا من بلاد الإسلام .

و يزيد عمر فى وصيته بأهل نجران . . فيكتب إلى يعلى بن أمية : « إئتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجلِهم من أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وأمسح أرض كل من تجلى منهم ، ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ثم نعطيهم أرضا كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ووفاء بذمتهم فيما أمر الله ، من ذلك بدلاً بينهم و بين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف) .

على هذه الصورة السمحة الرحيمة تم إجلاء النجرانيين من قبل عمر . .

فأى فارق عظيم بين هذا الأسلوب من أساليب السيطرة والحكم و بين شتى أساليب الحكم الأخرى فى دول ما زالت تزعم لليوم أنها وحدها واضعة مبادىء الحرية والديمقراطية والمساواة ؟ !

وكان إجلاء النجرانيين أول أوليات عمر ، ومن أهم أوليات عمر !

***

ومن أهم أولياته — وهو ما يتصل بسياسته المالية ، وحياة المسلمين الاقتصادية والاجتماعية — أنه حين تم له فتح سواد العراق طلب إليه المحاربون أن تقسم أراضى سواد العراق بينهم باعتبار أنهم فتحوها عنوةً بسيوفهم . . فأبى الفاروق أن يقبل ذلك منهم ، ذلك لأنه فكر فى أمر عظيم ذى بال . . فكر بعد أن تغيرت الظروف و بعد أن رأى ما رأى من اتساع رقعة المملكة وتكاثر الغنائم وما تستدعيه الأحوال الجديدة من تعديل لبعض الأوضاع ، و إحداث لبعض الأنظمة . . فكر فى أن يلغى هذا التقسيم وأن يوجد بدلاً من ذلك تقسيماً من نوع آخر . . تقسيما يكون أبلغ وأبعد فى تحقيق فكرة المساواة . . !

وكان رأى فريق كبير من أقطاب المسلمين إذ ذاك أنه لا مانع من تقسيم هذه الأراضى ، غير أن عمر أبى ذلك بعد أن فكّر طويلا فى هذا الأمر الجلل . و بعد أن اقتنع أتم الاقتناع بأن المصلحة العامة للمسلمين تقضى عليه بهذا الإباء . .

وقف عمر أمام أولئك الأقطاب وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وقفته الخالدة المعروفة ، وتحداهم ؛ وقال لهم قولته المشهورة : « فكيف بمن يأتى بعدكم من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت بمن عليها وحيزت إرثاً عن الآباء . . ماهذا برأى ! »

ويطول الحديث ، ويطول النقاش ، ويستمر الجدل بين عمر من جانب . . وبين أكثرية الزعماء من جانب آخر . . حول هذا الموضوع . . وأخيراً ينتصر عمر بعد لأى ، وبعد طول إقناع ، وبعد استمرارٍ فى الأخذ والرد ، ويوافق المسلمون بالإجماع على ما ارتآه عمر من إبقاء هذه الأراضى مملوكة لأصحابها من السكان الأصليين ، بعد أن فرض على رءوسهم الجزية وعلى أرضهم الخراج .

وعلى هذا ، كتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص بعد أن تم فتح العراق : « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فانظر ما جلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال أو كراع فاقسمه بينهم ، بعد الخمس . . واترك الأرض والأنهار لعمالها فيكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شىء » .

وكان أول ما بدأ به عمر بعد أن أتم الله على يديه ما أراده من إحداث لهذا النظام . . أن فرض نظام العطاء للمسلمين كافة فأمر

بإحصاء الناس ، و بدأ بالعباس ومن يليه من قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ثم بأهل السابقة والذين شهدوا المشاهد ، وشاركوا فى الفتوح على حسب درجات كل منهم فى الجهاد ، ثم بعامة المسلمين .

* * *

ومن أوليات عمر : إحداثه للتاريخ الهجرى فقد كان العرب إلى أوائل عهد خلافته لا يؤرخون وكانت أحداثهم الشهيرة كحرب الفجار ، أو حادثة الفيل ، أو غيرها . . هى الأساس الذى عليه يعولون فى توقيت أحداثهم ووقائعهم كبراها وصغراها ، فإذا ولد مولود قالوا إنه ولد فى عام الفيل مثلا أو فى العام الذى تلا ذلك العام ، أو فى العام الذى وقعت فيه حرب كذا وهكذا . . إلى أن جاء الوقت الذى رأى فيه عمر بنظره الثاقب ، وعبقريته الملهمة أنه لا بد من إيجاد نظام للتوقيت بعد أن تضخمت الدولة ، واحتاج الأمر فيها إلى الدقة فى كل شيء . . فما هو إلا أن جمع — على عادته — كبار الصحابة واستشارهم فى هذا الأمر . وكان قد سألهم من أى يوم نكتب التاريخ ؟ فأشار عليه على بن أبي طالب « رضى الله عنه » بأن يجعل التاريخ من السنة التى هاجر فيها الرسول إلى المدينة ، ففعل ، وكان هذا فى السنة السادسة عشرة للهجرة . . .

وطبيعى أن يعقب إيجاد هذا التوقيت ، حادث آخر من نوعه ،

له صلته الوثيقة ، بتركيز أعمال الدولة وتنظيم أمورها المالية على وجه الخصوص ، فلقد أحدث عمر لأول مرة فى تاريخ الإسلام « نظام الدواوين » على مثال ما كانت عليه الدواوين فى دولتى فارس والروم .

وشىء آخر أيضاً أحدثه عمر ، وجاء متمماً لما أحدثه من قبل ، من وضعه للتاريخ الهجرى وتدوينه للدواوين ؛ ذلك هو ضربه للنقود .

فالعرب فى عصرهم الجاهلى ، ما كانوا يعرفون لهم نقوداً خاصة ، ولأمر ما . . أو لارتباط تجاراتهم بما كان يتاخمهم من الأقطار الخاضعة للنفوذين الفارسى والرومى . كانوا يتعاملون فيما بينهم بالنقود الفارسية والرومية ، من درهم ودينار ، واستمر هذا الوضع إلى عهد النبوة وعهد الصديق وأوائل عهد عمر ، ثم فى السنة الثامنة عشرة ، أمر عمر بضرب الدراهم على نقوش الدراهم الفارسية ، وزاد فى بعضها (الحمد لله) وفى بعضها (محمد رسول الله) .

وفى عهد عمر مصرت « البصرة » و « الكوفة » الأولى فى السنة الخامسة عشرة ، والثانية فى السنة السابعة عشرة هجرية .

وفى عهده أنشئت دور الضيافات ، قال ابن سعد : « اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما تحتاج إليه ليعين به المنقطع ، ووضع فيما بين مكة والمدينة فى الطريق ما يصلح من ينقطع

به ، وفى بعض الروايات أنه فعل مثل ذلك أيضاً بالطريق بين الشام والحجاز »[1] .

وعمر أول من عين القضاة ورتب لهم الرواتب . وأول من عس بالليل وأول من حمل الطعام من مصر إلى المدينة بحراً ، وأول من أقام والياً للحسبة وأول من شق الترع وأقام الجسور وأول من وضع المرابطين من الجند لحماية الثغور . . إلى غير ذلك من الأوليات . .

(١) يقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى كتابه « ذو النورين : عثمان ابن عفان » صفحة ١٢١ : على أن عمر يصح أن يسمى مؤسساً لديوان الوقف الخيرى على الوجه الذى نعهده الآن ؛ فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الفقراء الذين لا يجدون الطعام ؛ وأصاب قبل خلافته أرضاً بخيبر ؛ فاستشار النبى عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها ؛ فجعلها عمر لا تباع ولا توهب ولا تورث ؛ وينفق منها على الفقراء والقراء وغيرهم ؛ ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقاً فقيراً منها ...

العناصر النفسية في سياسة العرب

١

العناصر النفسية فى سياسة العرب . هو كتاب صغير الحجم ؛ جليل الموضوع . ألفه الأديب العربى الكبير الأستاذ شفيق جبرى[(١)] .

فإذا كان كل كتاب يقرأ من عنوانه — كما يقولون — فما من شك أن عنوان هذا الكتاب يعبر عن موضوعه أوضح تعبير !

فى هذا الكتاب تفسير لبعض حوادث التاريخ الإسلامى . فى ضوء العوامل النفسية . وقد يكون هذا أول بحث من نوعه فى الدراسات الحديثة . فلا أعلم باحثا تاريخياً قبل الأستاذ جبرى طرق مثل هذا البحث فى اللغة العربية معتمداً على التحليل النفسى . والعوامل النفسية ؛ فى الحكم على حوادث التاريخ .

وليس أولى من أن نرجع إلى المؤلف الفاضل فى إثبات أهمية العامل النفسى فى تحليل الحوادث التاريخية . وتعليل كل أنواع السلوك فى الحياة ؛ يقول الأستاذ جبرى :

« لقد تؤثر فى مصير الناس أمور شتى . ولكن أعظم هذه الأمور سلطاناً إنما هى العوامل النفسية . ولو تذكرنا التعبير الذى ولدته هذه

---

(١) من سلسلة « اقرأ » نشرته دار المعارف بمصر .

الحرب وهو « حرب الأعصاب » لعرفنا حق المعرفة أن لعلم النفس منزلة عظيمة فى الحروب .

ويقول بعد هذا :

« على أنه قد استطاع بعض الرجال فى خلال التاريخ أن يعرفوا ما نسميه « روح الجماعات والأفراد » وكانت هذه المعرفة سبب نجاح سياستهم وقد طبق علم النفس فى الحروب فكان له شأن عظيم » إلى أن يقول :

« أما فى السياسة فإنه يعلمنا الفن الصعب الذى نقود به الجماعات والأفراد ، ونحول به عواطفهم ، وقد تمثل « لوبون » فى هذا الباب برواية من روايات شكسبير ، فمن طالع هذه الرواية استطاع أن يجد فيها دليلا واضحاً على ذلك فى الخطاب الذى ولده شكسبير على لسان انطونيوس لما استثار الجماهير أمام جثة قيصر » .

« لا شىء أصعب من سياسة الناس ، لأن الرجل عادة مركب من شخصيات شتى ، لا تظهر إلا فى أحوال معينة وما هذا الثبات الذى نراه فى شخصية كل واحد منا إلا شكل ظاهر لا غير ، تثبت هذه الشخصية بثبات أحوال معينة ، فإذا تغيرت هذه الأحوال تغيرت شخصية الرجل فالهادىء قد يصبح ثائرا ، والرقيق قد يصبح قاسياً ، والفاضل قد تتناثر فضائله ، فإذا جهل رجال السياسة هذه الخفايا النفسية ، فإن جهلهم يؤدى إلى الإخفاق فى سياستهم » .

« لا أجد سبيلا إلى التوسع فى هذه المقدمة ، و إنما حسبى من كل ما ذكرت أن أشير على سبيل الإيجاز إلى أن السياسة المجردة من علم النفس ؛ إنما هى سياسة مفشفشة . . بقى على أن اذكر نماذج من سياسات العرب التى نجحت أو التى لم تنجح ، وكان لنجاحها أو لإخفاقها عوامل متفاوتة ، أقف منها فى هذا الكتاب على العامل النفسى وحده دون الإشارة إلى غيره » .

و إليك أنموذجا من أسلوب المؤلف فى البحث ، وأسلوبه فى تفسيره للحوادث والسلوك ، فى تحليله لموقف النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى سفيان بن حرب ، عميد البيت الأموى ، يقول المؤلف :

« أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فكان آخر من دخل عليه أبا سفيان بن حرب فقال : يا رسول الله لقد أذنت للناس قبلى ، حتى ظننت أن حجارة الخندمة ليؤذن لها قبلى .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله إنك والناس كما قال الأول : كل الصيد فى جوف الفرا ، أى كل شىء لهؤلاء من المنزلة فإن لك وحدك مثل ما لهم كلهم ! .

• قد تظن أن هذا الخبر لايد لنا إلا على منزلة أبى سفيان وحدها ؛ ولكن فيه عنصراً آخر من عناصر سياسة الرسول ؛ إنا نعلم أن أبا سفيان كان سيداً من سادات قريش فى الجاهلية كانت عنده العقاب راية

قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها ، إذا حميت الحرب فاذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه ، وكان رأسا من رءوس الأحزاب فى الاسلام إلا أن سيدنا محمداً لمّا قال له : كل الصيد فى جوف الفرا ، لم يقصد إلى الدلالة على مكانته وحدها ، وإنما خرج بهذا الكلام من مقام حرج فإن قول أبى سفيان . حتى ظننت أن حجارة الخندمة ليؤذن لها قبلى ، يصور أوضح تصوير ثورة أعصابه ، وهيجان نفسه ، وشدة غضبه ومن يدرى ما كان يجر إليه هذا الكلام ، لو لم يسرع إلى التخفيف من هذه الثورة والغضب ، وقد رأى سيدنا محمد فى وجه أبى سفيان هذا كله ، وعرف أن من وراء هذه الثورة شيئاً لا تحمد عقباه فتلافى الأمر بمحاسن حكمته ، ولطائف فطنته فإن قوله كل الصيد فى جوف الفرا قلب أبا سفيان من حال إلى حال فى أقل من رد النفَس ، فقد قلَبه من الغضب إلى الرضى ، ومن الثورة إلى الهدوء ، ومن العبوس إلى الطلاقة ، ومهما يقل الرسول لأبى سفيان بعد هذا الكلام فقد كان أبو سفيان مستعداً لقبوله ، لأن ثورته قد هدأت ، وغضبه قد سكن ، ولم ينصرف فكره إلا إلى هذه المنزلة التى رده إليها سيدنا محمد . وأسلوب مثل هذا الأسلوب فى معاملة الناس الخاصة ليس بالأمر الهين ، فليس بالأمر اليسير أن يدخل عليك رجل يستشيط غيظا ، ويتلظى غضبا ، وترى هذا كله فى وجهه ثم تخرجه فى أقل من لمحة من حالٍ إلى حالٍ ، وذلك بكلمة تهتدى إليها

فى حينها ، وتضعها فى موضعها ، فتــكون هذه الكلمة بمنزلة الثلج الذى يوضع فى كبد المحموم » .

« هذه غاية المهارة فى معرفة أسرار النفوس، وعوامل الغضب والرضى، والثورة والهدوء و بمهارة مثل هذه المهارة نجحت سياسة سيدنا محمد فى جماعة فيهم أمثال أبى سفيان وما كان نجاحها بقليل » .

وهكذا يمضى المؤلف فى التحليل وهكذا يفسر لنا على طريقته التى رسمها : ذلك الموقف الرائع من مواقف النبى الـكريم مع كبير رجالات قريش ، أبلغ تفسير ، إنه التفسير الواقعى الصحيح ، ولقد يمر على هذا الحادث وأمثاله كثيرون من الناس دون أن يبدو أى التفات منهم إلى مثل هذا المعنى والسبب أن تاريخنا كله قد دون بعيداً عن الدراسات النفسية ، وقبل أن تظهر وتتبلور بطبيعة الحال هذه الدراسات فى عصرنا الحاضر ، فما أشد حاجتنا اليوم إلى أن نعود إلى دراسة أهم الأحداث فى تاريخ العرب والإسلام على أساس من علم النفس والتحليل النفسى .

٢

ومن جميل صنع المؤلف فى كتابه أنه لا يكتفى بالتحليل الخاص ، أى تحليل الحادثة وحدها بل هو غالباً ما يتدرج من الخاص إلى العام ، إنه يشير إلى الحادثة ويعلق عليها ثم ينتقل إلى التعليق الشامل . . التعليق الذى يتصل بالأحوال العامة للشخصية التى يتحدث عنها ، وكأنه بهذا يريد أن يعود بالقارىء إلى العنصر النفسى الأصيل ، أو مفتاح الشخصية ، كما يقول بعض الكاتبين .

فهو فى حديثه وفى تحليله لموقف الرسول الكريم مع أبى سفيان ينتقل بنا إلى الحديث العام عن سياسة الرسول بصورة عامة وعن طابعها النفسى الأصيل ، فيقول :

« . . . وما أظن أن أحداً بلغ من معرفة النفوس ما بلغه سيدنا محمد ، فقد نقل بيئة من عالم إلى عالم ، أدخل على عالمه الجديد أفكاراً وعواطف لا عهد لعالمه القديم بمثلها ، فليس بالأمر السهل أن ينشأ فى بيئة معروف أمرها فى العصبية والنخوة ، كلها سادات طبعوا على السيادة ، فيقبح أفعالهم ، ويذم آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويزيل دياناتهم ، ويبطل سنتهم ، ليس بالأمر السهل أن ينزع بالناس عما ألفوه من الديانات إلى دين حديث لم يألفوه ، فإن دياناتهم القديمة قد رسخت

فى قلوبهم ، وتمكنت من ضمائرهم ، وصارت جزءاً من لحمهم ودمهم وروحهم ، ولكن سيدنا النبى خبر خلال رجاله العرب وامتحن نفوسهم وطبائعهم فسهلت له هذه الخبرة جليل عمله الذى أقدم عليه ومهدت سبيلا إلى التوفيق فيه ، ولقد اجتمعت له أسباب كثيرة هيأت له نجاح دعوته ولكن الذى يهمنا فى هذا المقام إنما هى الأسباب النفسية وحدها ، فقد تجلت قدرته على خبرة النفوس فى كثير من أعماله ، ولا أرى بى حاجة إلى ذكر هذه الأعمال كلها ، وحسبى ما أشرت إليه من اهتدائه إلى تحويل بيئته من ديانة إلى ديانة فهذا العمل وحده دليل قاطع على عظمة سياسته النفسية ، لقد دخل الأمور من أبوابها ، ولو كان يجهل نفوس أهل البيئة التى عاش فيها لما استفاضت دعوته فى الآفاق . ولا يشبهه أحد من رجال العرب فى سياستهم النفسية مهما تكن قدرتهم على هذه السياسة » .

وفى الكتاب إشارات صائبة ؛ وومضات من هذا القبيل فى حديثه عن يوم السقيفة ، وموقف الصديق الحاسم فى ذلك اليوم المشهود ، وكذا عن موقفه الحازم مع أهل الردة ، ولعل حديثه عن عمر بن الخطاب فى مسألة الشورى هو الذى يستوقف النظر بل هو ما نخالفه فيه على خط مستقيم .

فهو لا يستصوب ما ذهب إليه عمر رضى الله عنه فى جنوحه إلى الشورى وعدم استخلافه أحداً من بعده كما فعل أبو بكر الصديق

رضى الله عنــه ، يشير المؤلف الـكبير ، فى غلطةٍ قلمية ليست هينة بالقياس إليه ؛ إلى إن هذا التصرف غلطة نفسية من الفاروق العظيم !

وحينما يريد أن يقارن أحداً بعمر فى هذا المقام لا يجد من يقارنه به سوى معاوية بن أبى سفيان . ويقول عنه : « وقد أدرك معاوية هذه الغلطة ، ومثله لا يكاد يفوته شىء من أسرار السياسة النفسية » .

ونحن نرى أن مثل هذه المقارنة بين عمر وبين معاوية فى جنوح عمر إلى عدم الاستخلاف وتركه أمر تعيين الخليفة من بعده شورى للمسلمين وذهاب معاوية إلى عكس هذا التصرف . . نقول إن هذه المقارنة لا محل لها هنا ، لأن وجه الشبه فيها معدوم ، ولأنه يوجد فارق كبير — وهذا ما نعتقد أن الأستاذ جبرى نفسه لا يشك فيه — بين العهدين : عهد عمر ، وعهد معاوية . فليس الفارق هنا فارقا بين سياسة عمر من حيث هى ؛ وسياسة معاوية من حيث هى . . . وإنما الصحيح أن نقول إن هذا الفارق بين السياستين منشأه الفارق بين العصرين ، إنه الفارق بين عصر عمر وعصر معاوية — كما قلنا — أو هو بتعبير أدق : الفارق بين عصر الراشدين وعصر الأمويين !

وقد كان من السهل على المؤلف الحصيف أن يقرب المسافة . فيدعم رأيه فى تحبيذ الاستخلاف بما فعله الخليفة الأول . وهنا قد تكون المقارنة أقرب إلى الصواب . .

لـكن ما رأيه فى أن موقف سيدنا عمر فى هذا الصدد كان يختلف كل الاختلاف عن موقف الصديق أيضا !

وما رأيه إذا أوردنا الدليـل على أن التصرف الذى تصرفه عمر رضى الله عنه فى عدم الاستخلاف إنما كان ناشئاً عن خبرة نفسية . . وليس هو بالغلطة النفسية . كما شاء أن يقول . . .

ما رأى المؤلف الفاضل إذا أوردنا هذا الدليل من نفس كلامه . فهو يقول :

« لم يخل استخلاف عمر على المسلمين من كثير من الحيرة والتردد فهو لم يشأ أن يحمل المسلمين حيا وميتاً . ثم رأى أنه إذا استخلف فقد استخلف من هو خير منه يعنى أبا بكر . و إذا ترك الأمر فقد تركه من هو خير منه يعنى النبى . ثم رأى أنه لو أدرك أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفه ولو أدرك خالد بن الوليد لولاه . وفى هذا كله كثير من الحيرة . ثم رأى فى على فـكاهة . وفى طلحة زهواً ونخوة . وفى عبد الرحمن بن عوف صلاحاً مع ضعف . ورأى سعداً صاحب مقنب وقتال . لايقوم بقرية لو حمل أمرها . ورأى أن الزبير لقيس . ورأى أن عثمان لو ولى الخلافة لحمل قومه بين معيط على رقاب الناس . ثم سأل الناس أن يدلوه على برٍ تقيٍ يوليه . ثم صح عزمه على أن يستخلف النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راضٍ . فجعل الخلافة شورى بين هؤلاء الستة

من المهاجرين الأولين . وهم على وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص » اهـ .

ففى مثل هذا الموقف . . ترى ماذا يصنع عمر رضى الله عنه ، ورأيه فى من يصلحون للترشيح لخلافه المسلمين هو رأيه الذى نقله المؤلف فى هذه السطور ؟ إنه رأى قد يدل على الحيرة والتردد . — كما قال — ولكنه لا يدل على الغلط النفسى . . كل ما يمكن أن نقوله أنه تصرف اضطرارى لجأ إليه الخليفة الشهيد مرغماً أملاه عليه الظرف العصيب . لقد فوجىء عمر بذلك الاعتداء الوحشى عليه . . فأين الفرصة الكافية فى مثل هذا الموقف الرهيب ؟ أين الفرصة الكافية للتفكير فى مسألة المسائل . . . أو البت والإسراع فى ترشيح خليفة معين ؟ و إذن فأى عمل أصح — فى هذه الحال — من اللجوء إلى الشورى . واختيار نخبة من أجلاء الصحابة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . لكى ينتخبوا من بينهم فى أيام ثلاثة من سيكون بعده خليفة المسلمين ؟

لو كان هذا التصرف من عمر (غلطة نفسية) لكنا رأينا من نتائجه غير ما رأينا ، من اتفاق كلمة المسلمين حينما أعلن عبد الرحمن بن عوف فى اليوم الثالث من هذه الأيام انتخاب سيدنا عثمان من بين الأقطاب الخمسة الآخرين . . .

ولقد أشار الأستاذ إلى تشاح أصحاب الشورى . على الخلافة ومن المؤكد أنه عند تقرير كل أمر خطير كهذا لامعدى من أن تختلف الآراء...

فإذا قال قائل هنا عما حدث فى عهد عثمان رضى الله عنه مما أدى إلى الفتنة الكبرى ، فلا يمكن أن تقول إن هذا من نتائج الشورى التى أرادها عمر ، وإنما الحق أن تقول إن ما وقع فى عهد الخليفة الثالث إنما كان نتيجة عوامل أخرى لاعلاقة لها البته بالشورى فالنتيجة المتوخاه من الشورى قد حصلت على أتمها بمجرد أن اتفق المسلمون على انتخاب الخليفة الجديد ، وقد كانت هذه النتيجة — كما رأينا — موفقة كل التوفيق !

لقد أشرنا إلى الفارق بين عصر عمر وعصر معاوية بن أبى سفيان . .

وهذا الفاروق يتضح كل الوضوح عندما ننظر إلى كل ظاهرة ، أو كل حادث من حوادث كلا العصرين .. فعلى الرغم من كل ما يقال عن بدء ظهور العصبية القبلية فى عصر عمر ، وهى الظاهرة التى كانت من أشد ما منى به المسلمون ، وكانت فى عصر معاوية وخلفائه من بعده أكثر وضوحاً ، وبروزاً . . على الرغم من كل ذلك فقد كان العصر العمرى بريئاً إلى حد كبير من نعرة تلك العصبية الجاهلية !

كان المسلمون فى عصر عمر أقوى إيماناً ، وأنقى ضميراً ، وأكثر انصياعاً للحق ، وبعداً عن الهوى ، وأقرب إلى وحدة الرأى ، وأعظم تقديراً للصالح العام ، واستمساكاً بالدين . وإذن فقد كانت الشورى التى أرادها عمر تتلاءم كل التلاؤم مع نفسية المسلمين واستعدادهم إذ ذاك فلم يكن منها أى خطر على وحدتهم . . لقد كان اختيار عمر للشورى توفيقاً من الله لاشك فيه ، وفى هذا الاختيار أكبر الدلالة على بعد النظر . وعلى الخبرة النفسية !

وما من شك فى أنه لو أراد معاوية أن يجعل الأمر شورى من بعده على النحو الذى صنعه عمر . . ما من شك فى أن النتيجة هنا كانت تختلف . . إن روح العصر هى التى أوحت لكل من الرجلين العظيمين أن يجنح إلى ما جنح إليه[1] .

---

(١) قبل سنوات كتبنا هذا البحث . . ومنذ شهرين اثنين أى فى أبريل ١٩٥٤ أصدر الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد كتابه المنتظر من وقت طويل عن الخليفة الثالث عثمان بن عفان فاذا بالأستاذ الناقد يبحث قضية الاستخلاف هذه بحثا مستفيضاً ممتعا جاء فيه :

« . . . على هذا الوجه أبرأ عمر ذمته من قضية الاستخلاف وعلى هذا الوجه نرى عقل رجل من أولئك الرجال الأفذاذ يعمل فيعرف ما يصلح أن يعمل فى تفصيلات هذه القضية التى واجهته بجميع عقدها ومخاطرها لأول مرة فى حياته وهو يفارق تلك الحياة ؛ يقلبها على جميع الوجوه ويفرض لها جميع النتائج ويطرق أبوابها فيفتح منها ما ينبغى أن يفتح ويغلق ما ينبغى أن يغلق ويلاقى من جانب ما يخشاه من جانب ؛ ويختار الرجال ثم يختار الخطط على كل احتمال من إحسان أو إساءة ؛ ومن وفاق أو شقاق ؛ ويفعل ذلك فى غمرات الموت بين صرعات الألم من جراحه القاتلة ؛ ويعالج به أمراً لم يعالج من قبل على هذا المثال أو على مثال غيره ؛ وكأنما هو من خبراء الاختصاص فى دساتير الحكم درسها =

وأخيراً ؛ وقبل أن أختم هذا البحث ؛ لابد لى من أن أشير إلى أن كتاب « العناصر النفسية فى سياسة العرب » كتاب ممتع حقاً ، وكم كنت أود أن استطرد إلى بعض فصوله الأخرى لما تضمنته من نظرات صائبة . وتحليلات نفسية . أجاد فيها المؤلف كل الإجادة . ومن هذه الفصول : «خديعة المصاحف» و « خطبة زياد فى البصرة» و « عبد الملك ابن مروان » و « الحجاج » و « موسى بن نصير » و « سياسة المال » .. فحسبى — وقد طال هذا البحث — أن أشير إليها . . وحسبى بعد كل ما أشرت إليه أن أحيل القارىء الأديب إلى الكتاب نفسه . لأنه لا ينبغى أن تفوت مطالعته أى عربى . . إنه من تلك الكتب «الموجهة» . . والتى هى بما ينبعث من بين سطورها من ومضات التفكير القومى الرحيب ؛ خير ما يغذى الوعى العربى والإسلامى الحديث . . .

= وتلقى دروسها من أساتذتها الذين سبقوه إلى تقريرها وتدوين وقائعها ومواقعها؛ وجلس ليوازن ويقابل ؛ ويطابق ويوافق ؛ ومن حوله الأعوان يأبون ما يطلب ويستدركون ما يفوت ؛ وينتهون فى سعة من الوقت إلى قرارهم وهم وادعون آمنون أن يصيبهم مكروه من مغبة ما قرروه . . .

ثم يقول الأستاذ العقاد :

« فمن سأل عن معجزات العقائد فى كواكب السماء أو أطواد الأرض فهذه معجزة المعجزات التى تأتى بها العقيدة فى نفس الإنسان : تخرجه من جوف الصحراء كفؤاً لأعضل المعضلات بخلقه؛ وكفوءاً لها بعقله؛ وكفؤاً لها بعمله ؛ وتعطا من الشعور بالتبعات لا يجارى . . . وتعطا من القدرة على النهوض بها يطول الزمن بأبناء الحضارات قبل أن يبتغوه؛ وقبل أن يعرفوه »

« ذو النورين : عثمان بن عفان صفحة ١٣٩ »

تاريخ العرب الموجز

للدكتور فيليب حتى

مزايا ثلاث تبدو واضحة كل الوضوح فى هذا الكتاب الجليل ، وقد وضعه باللغة الانجليزية أولا مؤلفه العلامة الدكتور فيليب حتى ، أستاذ آداب اللغات السامية ورئيس دائرة العلوم الشرقية بجامعة برنستون بأمريكا ونقله أخيراً إلى اللغة العربية بمعونة نفر من رفاقه الفضلاء ، وهم بدورهم استعانوا — كما يقول المؤلف فى المقدمة — بترجمة كتابه المطول فى هذا الموضوع . .

أولى هذه المزايا ، الشمول ، فقد أوفى على الغاية فى تدوينه لأهم الأحداث البارزة ذات الأثر فى نشوء وتطور الحياة العربية ، والحضارة الإسلامية ، وبخاصة ما كان منها متصلا بالنواحى الاجتماعية والثقافية .

ثم أسلوبه العلمى والأدبى معا . . وأخيراً روح الانصاف المتجلية فى معظم مايسوقه المؤلف من آراء خلال سرده للحوادث وتحليله للرجال !

وقد وضع هذا الكتاب فى الأصل فى لغته الانجليزية بقصد إطلاع القراء الأمريكيين والأوربيين على حقائق التاريخ العربى . ومن هنا تأتى فائدته . خصوصا فى هذا العهد الأخير ، وأعنى بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية . . . وأبانت الحوادث السياسية فى معظم المواقف .. بأن أكثر من وضع لهم هذا الكتاب — إن لم نقل كلهم — كانوا بعيدين كل البعد عن معرفة أى حقيقة تاريخية أو اجتماعية أو سيكلوجية عن الأمة العربية !

ثم أن قيمة هذا الكتاب من الوجهة العلمية ، ومكانة مؤلفه المرموقة فى العالم العربى ، وفى العالم الجديد ونصاعة آرائه وأحكامه التاريخية ، لاشك أنها تزيد من فائدة الكتاب لمن يقرأونه من أبناء الشعوب العربية .

ولعل من أمتع ماتراه ماثلا فى هذا الكتاب مواقف المؤلف ، وهو يتحدث إليك عن مجالى العظمة والعبقرية والفخار فى عصور العرب الذهبية مُشيداً بجلائل أعمالهم فى عبارات موجزة مشرقة إن دلت على شىء ، فعلى روح الانصاف التى أشرنا إليها . ثم على هذا الشعور العربى الأصيل ... وليس هذا الشعور الأصيل غريباً من المؤلف العربى الكبير .

فانظر إليه فى الفصل الذى عقده عن مكانة العرب فى التاريخ ، يتحدث إليك عن تراث العرب الثقافى والعمرانى فى هذه العبارات :

« . . . ولم يقتصر ماخلده العرب فى تاريخ العصور على إنشاء دولة بل تعدى ذلك إلى الثقافة والعمران ، فلقد ورث العرب المدنيات القديمة التى ارتفعت معالمها ، على شواطىء الرافدين وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية ، وفى وادى النيل ، واقتبسوا عن الأغريق والرومان القيِّم من آثارهم ثم أضافوا إليه كثيراً مما ابتدعوه ، ومن ثم نقلوه إلى أوربا فى عصورها المظلمة ونشروه فيها فكان من جراء ذلك أن بزغ

فى أوربا فجر تلك اليقظة العلمية التى لم يزل العالم الغربى —ومنه أمريكا— يتمتع حتى اليوم بحسناتها . . »

« وليس من شعب آخر قام فى القرون الوسطى بما قام به العرب فى سبيل تقدم البشرية فبينما كان فلاسفة العرب مكبين على دراسة تآليف أرسطو كان شرلمان ورجال بطانته يحاولون إتقان كتابة أسمائهم. وبينما كان علماء العرب فى قرطبة يترددون على خزائن كتبها السبع عشرة ، وفيها خزانة حوت ٤٠٠٠٠٠ مجلد ويعودون إلى بيوتهم فيتنعمون بالاستحمام فى حمامات بلغت الغاية فى النظافة والأناقة كان الأساتذة والتلامذة فى جامعة أكسفورد يستنكرون الاستحمام ، ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التى يجب الترفع عنها . . »

وفى فصل « العلوم والآداب» يتحدث إليك عن أثر العرب فى نقل الفلسفة والأدب والعلوم وعن تكييفهم لها ، وتجديدهم فيها وتحويرهم إياها إلى ما يوافق حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم فيجىء قوله فصل الخطاب فى هذه القضية . . يقول :

« لم يكتف العرب بالنقل والتقليد بل تعدوهما إلى التكييف والتجديد فهم لم يكتفوا باستيعاب تراث الفرس الفنى وتراث اليونان العلمى على ما كان عليه بل حوروا التراثين بموجب حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم » .

وهذا الذى يقوله الدكتور حتى ، معروف ومسلم به ، غير أنا لانزال نشاهد مِن بعض متعصبة المستشرقين من يصرون على أن العرب لم يكونوا سوى مجرد ناقلين للفلسفة والعلوم ، وأنه لم يكن لهم أى ابتكار فى هذا الميدان . . .

والدكتور حتى ، لا نظن أنه يتهم بالتحيُّز ، على كل حال !

ويحضرنا بهذه المناسبة ما قرأناه للأستاذ عباس العقاد فى هذا الصدد فى كتابه « أثر العرب فى الحضارة الأوربية » إذ يقول :

« ويخطىء من يرى أن كل ما تركه فلاسفة المسلمين قد نقلوه قبل ذلك بحروفه عن فلاسفة اليونان ، فقد وجد من الفلاسفة الإسلاميين من تصرف واستقل برأيه كما وجد منهم من وقف عند النقل والتفسير ، وأكثرهم قد تلقوا مذاهب الأولين على أنها عمل قابل للتعديل والتفنين ، وليس على أنها قضية مسلمة لا يأتيها الباطل بحال » .

ويقول المؤلف عند كلامه على الطب : « وخطا العرب فى هذا العصر — يقصد العصر الذى يبتدأ من النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى — خطوات واسعة فى الاستدواء بشتى العقاقير فهم أول من أوجد حوانيت لبيع الأدوية ، وأقدم من أسَّس مدرسة للصيدلة ، وصنف فى الأقرباذين رسائل . . وكان يفرض على الصيادلة والأطباء منذ زمن المأمون والمعتصم اجتياز امتحان خاص ، وعلى أثر سوء

تصرف جرى من أحد الأطباء أوعز الخليفة عام ٩٣١ م إلى سنان بن ثابت بن قرة وهو طبيب مشهور إلى أن يمتحن كل الأطباء ويعطى الإجازات الطبية لمن توفرت فيهم الأهلية فقط فاجتاز الامتحان فى بغداد ما ينيف على ثمانمائة وستين وبذلك تخلصت العاصمة من الدجالين . . . ومما يدل على العناية بصحة أهل الريف ما أمر به على بن عيسى الوزير فى عهد المقتدر من إرسال بعثات من الأطباء تحمل الأدوية وتطوف أنحاء البلاد تعالج المرضى والمعوزين ، وكانت بعثة من الأطباء تتفقد السجون يوميا فمن هذه الحقائق يظهر لنا اهتمام أولياء الأمر بالصحة العامة وهو أمر لم يكن مألوفا فى باقى أقطار العالم آنذاك ... » .

ويتجلى إنصاف المؤلف رائعاً حينما يعرج إلى قصة إحراق مكتبة الاسكندرية التى يتداولها بعضهم ناسبين أمر إحراقها إلى عمر بن الخطاب... يقول الدكتور حتى عن هذه القصة : «إن مصدرها الخيال لا الحقيقة» .. إلى أن يقول : « والواقع أن مكتبة البطالسة أحرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق . م وأن مكتبة أخرى نشأت من بعد يشار إليها باسم المكتبة الصغرى دمرت سنة ٣٨٩ م على أثر أمر أصدره الامبراطور الرومانى ثيودوثيوس . وإذن فلم تكن هنالك مكتبة تستحق الذكر عند الفتح العربى .

وقد أشار المؤلف إشارة الباحث المستقصى ناقدا ما كان من أمر الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك مع قائده « موسى بن نصير »

فاتح الأندلس ؛ أنظر إليه يقول : « وحلَّ بموسى ما حلَّ بكثير غيره من قواد العرب البارزين ؛ فقد أذلَّه الخليفة سليمان وعاقبه بالوقوف يوما كاملا فى حرارة الشمس حتى وقع مغشياً عليه ؛ وصادر أمواله ؛ وجرّده من كل سلطة ، وآخر عهد لنا بموسى فاتح أفريقيا وأسبانيا مستعطياً فى قرية نائية بالحجاز وهو طاعن فى السن . . . » .

***

ولم يخل كتاب الدكتور فيليب حتى — كأى كتاب غيره — من بعض المآخذ . . فهو يقول عند كلامه عن ولادة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم : « ولقد دعته أمه باسم قد يظل مجهولا ، أما الاسم الذى دعى به فى القرآن فهو محمد . . . »

هكذا يقول . . مع أن الثابت فى جميع المصادر العربية أن الرسول سُمىَّ محمداً منذ الولادة . . سمَّاه بذلك جده عبد المطلب .

وعندما يتحدث الدكتور عن قضية اعتزال الحسن رضوان الله عليه للخلافة ومبايعته لمعاوية يقول :

« . . ولكن الحسن الذى كان يميل إلى الترف والبذخ لا إلى الحكم والإدارة ، لم يكن رجل الموقف . . . — كذا ! — فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه إيَّاها معاوية . . . » .

وأظن أننا لسنا فى حاجة إلى أن نقول إن هذا التعليل لموقف الحسن ؛ ليس هو التعليل الصحيح !

فلم يكن تنازل الحسن عن الخلافة ومبايعته بها لمعاوية ناجماً عما سماه المؤلف « ميل الحسن إلى الترف والبذخ » . . ومعروف أنه قد سبق إلى مثل هذا القول بعض المستشرقين . . . فمن أين لهم هذا ؟

ونحن لا نحب أن نطيل فى هذا الموضوع ؛ و إنما نقول فى إيجاز — ولسنا فى هذا الذى نقوله نأتى بجديد ! — : إن موقف الحسن من قضية الخلافة إنما كان الموقف الحكيم . . الموقف الذى أملاه على الحسن خوفه أن تسفك دماء المسلمين ؛ ولا شىء غير ذلك . . . ومن المفهوم أن الناس قد بايعوا الحسن ؛ بعد مقتل أبيه الإمام . . والتف حوله الجيش وعاهده أربعون ألفا أو يزيدون على أن يموتوا دونه . . فيأبى أن يقاتل . . لماذا ؟ لأنه يرى — وما أصح ما يرى — أنه لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى فيضن بدماء المسلمين أن تسفك ... بل هو يقول فى ذلك فيما بعد لمن لامه على موقفه هذا : « كرهت أن أقتلكم على الملك » !

أفيصح أن يقال بعد هذا إن موقف الحسن عليه السلام من قضية الخلافة كان باعثه ميله إلى الترف والبذخ إلى آخر ما قاله الأستاذ فيليب حتى متابعاً فى قوله هذا بعض المستشرقين ؟ !

ويشير المؤلف إلى عصر الأمين بن الرشيد بكلمات لا نرى من المناسب إيرادها هنا . . . إنها كلمات تدعو إلى التقزز . . . ولعمرى ما كان أغناه عنها ! وما كان أغنى قراءه الأمريكيين عنها ! ونحن الذين لا نرى فى الأمين ما يقربه أى خطوة من أبيه الرشيد ؛ أو من أخيه المأمون ؛ لا نستطيع أن نقول « لا » حينما نرى بعض المؤرخين يوجهون مثل هذه الاتهامات . . . ولكنا حريون أن نقابلها — على الأقل — بالكثير من الشك . . . فالواقع أن شيئا غير قليل مما نُسبَ إلى الأمين كان من صنع الدعاوة . . . وهذا ما يحتم أن تكون الإشارة إلى ما ساقه المؤرخون من أمثال هذه الاتهامات فى أناة واحتياط .

ويظهر أن المؤلف الفاضل ممن يرجحون أقوال بعض المستشرقين أيضاً ! ممن يزعمون — وما أكثر ما يزعمون ! — إن الفقه الإسلامى قد تأثر بالقانون الرومانى واليونانى إلى آخره . . فهو يقول بصراحة : « ولم يكن فى القرون الوسطى بعد الرومان أحد غير العرب عنى بعلم الشريعة فأنشأ لها نظاماً مستقلا ؛ والفقه عندهم مبنى فى الدرجة الأولى على القرآن والسنة ولاشك فى أنه تأثر بالنظام اليونانى والرومانى . . . » .

والادعاء بأن فقه المسلمين قد تأثر بالأنظمة الرومانية واليونانية . . ادعاء باطل ولا شك . . وقد ظل هذا الادعاء — مع الأسف — سائدا بعض الوقت غير أن البحوث الأخيرة أوضحت بطلانه بما لا يدع

مجالاً لأى شك . . وأذكر أن فى طليعة من أشاروا إلى هذا الموضوع ؛ داحضين هذا الزعم : الأستاذ فارس الخورى ؛ العالم القانونى ؛ والزعيم العربى المعروف .

***

وعلى كل حال . . لا بد لنا من أن نقول ونحن نختم هذا المقال : إن ما نأخذه على الدكتور فيليب حتى فى كتابه القيم هذا ؛ لا يمكن أن يطامن من قيمة هذا الكتاب ؛ فما من شك فى طرافته ، بل وأهميته لدى قراء العربية والإنجليزية على السواء . .

ثم أن أى كتاب ؛ وخاصة عند ما يتناول بالنقد بعض القضايا الهامة سواء أكانت تاريخية أم غير تاريخية ؛ يمكن أن يخلو من بعض المآخذ ؟؟

الموالى فى العصر الأموى

ما من شك فى أن فى تاريخنا الإسلامى الطويل الأمد من العناصر الهامة والموضوعات الرئيسية ذات الأثر العميق فى حياة المسلمين ، مالوعني به أفاضل الكتاب من أصحاب التخصص فى الدراسات التاريخية ، وجمعوا بين متفرقه المنثور فى بطون الكتب ، ورتبوه أحسن ترتيب وصاغوه فى أسلوب العصر الحديث ، وعلى الطريقة العلمية فى كتابة التاريخ . . . لأفاد هذا العمل الجليل أيما إفادة فى تقوية الوعى الإسلامى ، وزيادة تمكين الشباب والمتطلعين عامة ، من الإحاطة بمقومات الحياة الإسلامية، ومعرفة شتى عوامل تطورها السياسى والاجتماعى فى مختلف الأحقاب .

ومن حسن الحظ أن الدراسات الجامعية — وبالأخص فى مصر الشقيقة — تتجه هذا الاتجاه الحسن فى العناية بالتاريخ الإسلامى لافرق فى ذلك بين جامعات القاهرة والإسكندرية وغيرهما من الجامعات الحديثة ، وبين أكبر وأقدم جامعة إسلامية فى الشرق اليوم وأعنى بها الجامعة الأزهرية .

وليس المقام هنا مقام إحصاء أو استقصاء لما أنتجته جهود هذه الجامعات من مئات الكتب والبحوث فى هذا الميدان . . . لاسيما فى ربع القرن الأخير ، أى منذ أن تحولت الجامعة المصرية القديمة من جامعة أهلية إلى جامعة أميرية ، ومنذ أن تكونت فى الأزهر كلياته

الحديثة الثلاث على مناهج نظامية . . . وإنما اكتفى بأن أشير إلى كتاب واحد من هذه الكتب ألفه عالم أزهرى مرموق ، متخصص فى التاريخ ، كان قبل أن يقدم إلى هذه البلاد ، ونحظى بأقامته بين ظهرانينا مشتغلا بالتدريس فى كلية الشريعة بمكة ؛ كان قبل هذا أستاذاً للتاريخ بالأزهر الشريف .

هذا الكتاب النفيس هو كتاب « الموالى فى العصر الأموى » ، أما مؤلفه الباحث الفاضل فهو الأستاذ محمد الطيب النجار .

وأظن أنه لا يخالف أحد فى أن من أعقد المسائل وأخطرها فى تاريخ الإسلام ، مسألة هؤلاء الموالى وبالأخص فى العصر الأموى.. ومن هم الموالى ؟ هم كما لا يجهل أحد : سكان البلاد التى فتحها المسلمون ثم دخلوا فى الإسلام على أثر الفتوح .

وأظن أيضاً أنه لا يخالف أحد فى أنه قد كان من الصعب أن يحيط القارىء بأطراف هذا الموضوع المتعدد الجوانب ، لعدم وجود الكتاب الذى يجمع بين ما تفرق هنا وهناك من شتى أنواع العناصر والأخبار التى يتكون منها تاريخ الموالى ؛ وقد حوت كتب القدماء كل هذه الأخبار بلا شك . . ولكنها حوتها على الطريقة التى كانت معروفة إذ ذاك . . . أعنى أنها لم تكن أخباراً مجموعة مرتبة . . . أو مصحوبة بأى لون من ألوان الدراسة والتمحيص . . . وإنما كانت

عبارة من مواد خام ، وشذرات متفرقة بين الألوف من الصحائف فى طيات تلك الكتب التى لم يكن ينقص أكثرها سوى الترتيب والتنظيم .

ولعل السر فى أهمية موضوع الموالى ،أنهم كانوا عنصراً له خطره فى الدولة ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا من أهم أسباب الثورات والفتن فى العصر الأموى خاصة . ومن الناحية الأخرى كان الموالى عاملا من أهم العوامل فى ازدهار النهضة العلمية والفكرية منذ أن أتيح لهم أن يدخلوا فى الإسلام .

وكان لتلك الثورات والفتن — ولا جدال — أثرها بالنسبة للأمويين . حيث آلت بهم فى النهاية إلى أسوأ نتيجة . . وانتهت إلى تقلص ظلهم وتلاشى ملكهم ، وقيام الدولة العباسية فى أثرهم على يد زعيم جبار من زعماء الموالى ، وذلك هو أبو مسلم الخراسانى ! . .

فهل كان الموالى على حق فيما أخذوه على أنفسهم من مولاة الشغب فى ذلك العصر . أم كانوا فى ذلك متجنين مخطئين ، ولم يكن الدافع لهم على كل ما أتوه ، سوى ماظلوا يحملونه فى نفوسهم من ضغينة وحقد لاالخلفاء بنى أمية فحسب وإنما لكل المسلمين ؟!

نعم هل كانت العصبية العربية وما قيل عن ظلمها وطغيانها فى بعض كتب ألفها مؤلفون فى العصر العباسى . هل كانت السبب حقيقة

فى حنق الموالى وفيما أدى إليه هذا الحنق من تذمر ، وفيما أوحى به هذا التذمر من ميل إلى الشغب و إثارة الفتن إلى آخر ما يعرفه المعنيون بالتاريخ الإسلامى ؟ أم أن شيئا آخر . . . هو السبب فى هذا الحنق وفى هذا التذمر ، وأخيراً هو السبب فيما شهده العصر الأموى من فتن وثورات قام بها الموالى ؟!.

لا أريد أن أدخل فى صميم هذا الموضوع وأنا بصدد الكلام عن كتاب الأستاذ النجار . . و إنما حسبى أن أشير إلى أن المؤلف الفاضل آراءه فى هذا الصدد ، وهى بلاشك نتيجة دراسة واستقراء، وأنا أوصيك ملحاً أن تقرأ هذا الكتاب القيم ، فستحكم معى بأنه قد سد فراغاهائلا فى المكتبة العربية .

ثم إذا علمت أن المصادر التى رجع إليها المؤلف فى تأليف كتابه هذا بين كتب عربية مطبوعة ومخطوطة ، وكتب أخرى فرنسية وانكليزية وألمانية و إيطالية ، مما وضعه مستشرقون كبار من أمثال .. « جولد زيهر» و (ميور) و (بارتورلد) و« لامنس » وغيرهم وما كتبه «غوستاف لو بون» فى كتابه«حضارةالعرب» إذا علمت أن هذه المصادر وقد أربى عددها على مائة كتاب . علمت مقدار ما بذل من جهد وعناء فى إخراج هذا الكتاب . . . ثم علمت قيمته العلمية .

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى سبعة فصول وخاتمة . . وما أحسن أن نأتى هنا بما وصف به هذا التقسيم فى مقدمته ، إذ يقول :

« ... وراعيت فى هذا التقسيم أن يكون الكتاب كله وحدة متناسقة بحيث يستطيع القارىء أن يعتبره بابا واحدا مقسما إلى فصول . أو فصلا واحدا مقسما إلى فقرات ، وقد جعلت الفصل الأول من الكتاب عن الموالى قبل العصر الأموى ، ذكرت فيه فى كلمة قصيرة كيف نشأ الرق فى الإسلام ، ثم تعرضت للولاء ، و بينت من هم الموالى الذين نقصدهم بهذا البحث ، ثم ذكرت أحوالهم وسياسة الرسول وخلفائه الراشدين نحوهم ، وذلك لكى أجعل القارىء فى ضوء موازنة بين حالة الموالى فى العصر الأموى وحالتهم قبل ذلك . . ثم جعلت الفصل الثانى عن الحالة الاجتماعية للموالى فى العصر الأموى ، وقد بينت فى هذا الفصل منزلة الموالى فى المجتمع العربى وما كان يشوبها على الجملة من تحقير وزراية نتيجة للعصبية العربية التى كانت سائدة فى المجتمع العربى إذ ذاك . . ولما كانت هذه النظرة المنطوية على التحقير والازدراء سببا جعل الخلفاء الأمويين والولاة فى سائر الأقاليم لا يكترثون بهم و يتجاهلون حقوقهم فقد عقدت لبيان ذلك الفصل الثالث من الكتاب ، وهو : « سياسة الدولة الأموية نحو الموالى » .

ولما كانت سياسة الخلفاء الأمويين فى هذه الناحية تكاد تكون متشابهة ماعدا الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى انتهج سياسة خاصة ، وسلك سبيلا آخر ، فإنى قد عقدت لبيان ذلك الفصل الرابع من الكتاب وهو « عمر بن عبد العزيز والموالى » وبهذه الفصول السالفة يتجلى لنا موقف المجتمع العربى والدولة الحاكمة من الموالى فى العصر الأموى . . .

ولما كان الموالى يشعرون بأنهم أصحاب مجد قديم ومدنية عريقة وأن العرب قد اغتصبوا منهم ذلك المجد والسلطان وعلى الرغم من ذلك لم يعاملوهم على أساس من العدالة والمساواة فإنهم قد قاموا يجاهدون لاسترجاع مجدهم والانتقام لأنفسهم وقد سلكوا لتحقيق تلك الغاية ثلاثة طرق :

« أولا » السيطرة على الحركة الفكرية ، وقد استفادوا من ذلك فائدتين إحداهما : أنهم قد عوضوا أنفسهم بالعلم عن ذلك الازدراء الذى كان ينالهم من العرب حيث إن العلم يسمو بصاحبه ويرفعه ، وثانيتهما : أن بعضا منهم قد أدخل إلى الإسلام مبادىء غريبة ترجع إلى دياناتهم القديمة فكان هذا من الأسلحة الفتاكة التى أوهنت من قوة العرب والإسلام .

« ثانيا » مناوأة ذلك التيار القوى — تيار العصبية العربية — بتيار قوى آخر، وهو تيار الشعوبية وقد كان لذلك إرهاصات ومقدمات فى العصر الأموى .

« ثالثا » مؤازرة تلك الحركات الثورية المتعاقبة التى كانت تقوم ضد الدولة الأموية لكى ينتقموا لأنفسهم و يقتربوا من أهدافهم .

وقد عقدت لذلك ثلاثة فصول متتابعة ، وهى :

الفصل الخامس : الموالى والحركة الفكرية .

الفصل السادس : ارهاصات الشعوبية .

الفصل السابع : ثورات الموالى ونهاية الدولة الأموية .

ثم ختمت هذا البحث باستعراض عام لموقف الدولة الأموية من الموالى وموقف الموالى من الدولة لكى أبين إلى أى حد كان خطأ الأمويين أو عدم خطئهم فى انتهاج تلك السياسة — ولكى أبين مدى الآثار التى ترتبت على موقف الموالى من الدولة . . . »

وهكذا . . . وعلى هذا النمط من التحليل يمضى الأستاذ النجار فى عرض كل فصل من هذه الفصول .

مِنْ نوادر المخطوطات

هذا مخطوط من نوادر المخطوطات حقا . . لا لأنه قديم ، فما أكثر ما هو مشحون من هذه المخطوطات القديمة فى خزائن الكتب ، حتى إذا أتيح لك أن تبحث فيها ، وتقلب أوراقها ، وتطالع ما بين سطورها جاءك الخبر اليقين عنها بأنها لا تحوى أى جديد أو على الأصح لاتحوى أى شيء غير مكرر أو معاد من أنواع المعارف ، ومن ضروب الفنون .

هذا المخطوط النادر الطريف ، ماهو إلا كتاب حديث ، ألفه مؤلفه فى القرن الرابع عشر الهجرى ؛ أما أنه نادر فلأن الموضوع الذى طرقه هذا الكتاب ، لا أظن كتاباً آخر حواه ، أو مؤلفاً آخر عنى بدراسته والكتابة فيه .

والفضل يعود للأستاذ البحاثة المعروف الشيخ عبد الوهاب الدهلوى فى إطلاعى على هذا الكتاب القيم الذى شاء مؤلفه المؤرخ العالم المشهور الشيخ عبد الستار الدهلوى رحمه الله — جرياً على عادة علماء السلف الفضلاء — أن يسميه : « موائد الفضل والكرم الجامعة لتراجم أهل الحرم » وهو اسم يدل على المسمى ، وعنوان — كما ترى — يشير إلى الموضوع . . .

كان العلامة الشيخ عبد الستار الدهلوى رحمه الله — من الجنود المجهولين فى هذه البلاد ، من حيث التوفر على خدمة العلم عن طريق

التدوين والتأليف وان كان هو من حيث ما اختص به مَن العلم والفضل أشهر من أن يذكر .

ولقد حفلت مكتبته القيمة ، التى أبى إلا أن يتركها عند وفاته فى عام ١٣٥٥ ﻫ وقفا للباحثين وطلاب العلم ، حفلت هذه المكتبة بنفائس من المخطوطات ، إلى جانب ما تميزت به من احتوائها لأشهر ما هو مطبوع من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وخاصة منها ، كتب الحديث وسائر علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ والتراجم ، ولعل ما ضمته هذه المكتبة من الكتب الخطية المشتملة على تواريخ هذه البلاد لايوجد له نظير فى أى مكتبة أخرى من المكاتب الخاصة أو العامة .

فى هذه المكتبة توجد أشهر مؤلفات العلامة تقى الدين الفاسى مؤرخ مكة فى القرن التاسع الهجرى ، وتلميذ ابن خلدون .

وحسبك أن تعلم أن كتاب « العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين » وهو أكبر مؤلفات الفاسى وأهمها ، ويقع فى ثمانية مجلدات كبار ، محتوية على ماينوف على أربعة آلاف ترجمة . . حسبك أن تعلم أن هذا الكتاب الضخم توجد منه نسخة مخطوطة كاملة فى هذه المكتبة ؛ وهى النسخة الوحيدة الكاملة فيما أعلم من هذا الكتاب ؛ وحسبك أن تعلم بعد هذا أن هذه النسخة قد نقلها الشيخ عبد الستار بقلمه ، عن

أجزاء هذا الكتاب ، وهى متفرقة موزعة بين دار الكتب المصرية ، ومكتبة الأزهر وغيرها من المكتبات !

وكتاب آخر للفاسى أيضا ، نقله الشيخ عبد الستار بقلمه عن النسخة الخطية الموجودة بدار الكتب المصرية ، وأعنى به « شفاء الغرام فى أخبار البلد الحرام » وهذا الكتاب يقع فى مجلدين كبيرين ، وهو أوفى كتاب فى تاريخ مكة من أقدم عصورها إلى زمن المؤلف ، ولست أغالى إذا قلت إنه إذا وفق الله ثرياً من أثريائنا الغيرُ ، للقيام بطبع هذين الكتابين ، فإنما يقوم بخدمة من أعظم الخدمات للعلم ، وإنما يؤدى أحسن ما يؤديه الرجال العاملون .

هذا عن مكتبة العلامة المذكورة ومحتوياتها : أما عن مؤلفاته الخاصة فان كتابه « موائد الفضل والكرم » يدل — حقيقةً — على ثقافة تاريخية مكينة ، وسعة اطلاع وإحاطة بكل ما يتعلق بتاريخ هذه البلاد وتراجم أهلها فى القديم والحديث .

وللمرحوم الشيخ عبد الستار ، غير كتابه هذا ، كتاب آخر فى التراجم له أهميته بلا شك ، وهو مخطوط أيضاً ، وربما يقع فى أربعة أو خمسة أجزاء إذا أمكن أن يظهر للناس مطبوعا وأعنى به كتابه فى تراجم القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجرى ، وليس هذا الكتاب قاصراً

على تراجم أعيان الحجاز فحسب ، بل هو شامل لغيرهم ، من كل ذى شخصية بارزة ؛ مشهور فى البلدان العربية والإسلامية الأخرى .

أما كتابه « موائد الفضل والكرم » وهو الذى أردنا التعريف به فى هذا المقال ، فهو يبحث فى تراجم المكيين وبخاصة منهم ، من هاجرت أصولهم على توالى العصور إلى مكة من شتى أقطار العالم الإسلامى ، واشتهروا واشتهرت أسرهم فيها ، ومن هذه الأسر ماهو باق إلى اليوم ، ومنها أسر كريمة مشهورة لم يبق لها اليوم من أثر ، فأصبحت خبراً من الأخبار .

ولعل من الخير أن نأتى بفقرات فى وصف هذا الكتاب من مقدمة المؤلف نفسه ، قال : « القصد فى هذا التأليف ذكر البيوت المعروفة ، والعائلات المشهورة ، من سكان البلد الحرام » إلى أن يقول « وإنى لم أجد تأليفاً فى هذا الأمر خاصة ، غير ما ذكره العلامة المؤرخ قاضى مكة التقى الفاسى فى كتابه العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ذكر فيه تراجم علمائها وقضاتها ومن ورد مكة حاجًا وقد انقرض غالب ذريتهم ولم يبق منهم إلا القليل نادراً وقد استجدت بعد وفاته سنة ٨٣٢ ﻫ عائلات أُخر ، لم أجد من ذكرهم وجمعهم فى تأليف مستقل ، وقد ذكرت شرذمة من أحوالهم فى تاريخى المسمى (فيض الملك المتعالى بذكر أبناء القرن الثالث عشر والتالى) ، وهم مفرقون فى أحرفهم ناقلا

ذلك عن أفواه الأساتذة الذين أدركتهم من المعمرين ومن تاريخ شيخنا العلامة المؤرخ الشهير أحمد بن محمد الحضراوى ومن معاجم أهل عصرى واثباتهم وكنت حررت ذلك و وقف قلمى فى العام الثلاثين والثلاثمائة والألف وقد أطلعت بعده ، على أشياء قيدتها وأردت جمعها ، وضم بعضها إلى بعض وهو المقصود من هذا المؤلف . . . » .

ويمضى المؤلف فيشير إلى مسألة المسائل فى تاريخنا الاجتماعى ، مسألة المسائل التى كثر حولها الجدل . . . وأعنى بها الهجرة من الحجاز وإليه . . . وكيف بدأت هذه الهجرة ؟ ومتى بدأت ؟ وماذا أحدثت من النتائج ؟ وهو إذ يشير إلى هذه المسألة إنما يروى الكلام عن مصدر من مصادر كتابه ، قال عنه إنه . . . «شرح الرسالة الجدية لابن زيدون» من تأليف الشيخ جعفر لبنى ، وهذا ما يرويه المؤلف :

« وقد عُلم من مجموع ما تقدم أن سكان مكة فى ذلك العهد كانوا قريشاً ومن جاورهم من خزاعة لكن خزاعة لما ذهبت عنهم رئاسة مكة ، جاوروا أطرافها شاماً ويمناً ولهم بقايا إلى اليوم معروفون بين القبائل ، ثم لما جاء الإسلام وانتشر الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبناؤهم فى الجهاد فى سائر الجهات ، و رأوا الأراضى المخصبة ، والأفياء الباردة ، والظلال المتفيأة ، وصارت للقوم فيها أملاك رغبوا فى الاستيطان ثمة ، وتبعهم الجم الغفير يذهبون ارسالا إلى مصر والمغرب والشام والعراق

ليعيشوا مع أبناء جلدتهم فى الخصب والسعة ، والرفاهية والدعة والظلال، فما مضى بعد ظهور الإسلام نحو قرنين إلا ولم يبق فى مكة والمدينة من أهلها إلا أقل القليل مع من جاورهم من مسلمى الآفاق للتشرف بالجوار. وكان من عادة ملوك مكة أن ينادى مناديهم بعد أداء مناسك الحج « ياغريب بلادك » وهو عادة اتخذت من زمن الفاروق رضى الله عنه فإنه كان يأمر أن ينادى يومئذ : يا أهل الشام شامكم ، يا أهل اليمن يمنكم ، وذلك لئلا يكثر المجاورون فيستأثروا بمالهم من الثروة بأرزاق أهل مكة فيضيقوا ، وقد تركت هذه العادة من مدة طويلة » .

هذا مايقوله صاحب « شرح رسالة ابن زيدون » وقد تعمدنا أن ننقل هذه الفقرات بحذافيرها .. أولا لأنها تتصل بالبحث كل الاتصال ؛ وثانياً — لكى نشير — ولو أن فى هذا تجاوزاً لموضوع البحث — إلى هذا الأثر ، الذى هو« شرح رسالة ابن زيدون » والذى قام بتأليفه عالم من خيرة علمائنا فى الجيل الماضى . . فعلام تدل هذه الفقرات التى أوردناها هنا ؟ إنها تدل على قيمة هذا الأثر ، من حيث موضوعه وأسلوبه معا . . أرأيت كيف أنه رصين العبارة ، مركز الموضوع ، خال من السجع وقد كان هذا السجع شعار المؤلفين جميعاً فى كل مايكتبون؟!

وشيء آخر أيضاً يدلنا عليه هذا الأثر . . إنه يدلنا على أهمية ما كان يبذله علماؤنا فى الجيل الماضى ، من عناية بالغة بالتأليف فى الأدب إلى جانب تأليفهم فى العلوم الدينية .

ومن المؤسف اليوم ، وفى عصر النهضة العلمية والأدبية ، أن هذه العناية لم تعد موجودة . . .

ومن المؤسف أيضاً أن يكون لدينا تراث أدبى ذوقيمة يحوى أمثال « شرح رسالة ابن زيدون » وغيره ، فلا نعمل على إحياء هذا التراث كما يعمل غيرنا ، ولا ننشر كل مخطوط من هذا القبيل !

* * *

ولنعد إلى موضـــوع البحث . . . فإن فى كتاب « الموائد » فوائد شتى وتوضيحاً لحقائق كثير من الأسر المكية ، ومن الطريف أنه يشير إلى مسألة نسب السادة والأشراف فيقول : « إن كثيراً من الناس يظن أن نسب الأشراف خاص بأولاد الحسن السبط كما أن نسب السادة خاص بأولاد الحسين الشهيد بكربلاء ، وليست هذه قاعدة فـكثيراً ما يقال لأشراف مكة السيد فلان ويقال لأشراف المدينة المنورة أشراف ، وهم حسينيون » إلى أن يقول : « ويوجد بين السادة القاطنين بمكة والمدينة ، من هم أدارسة المغرب كما سيأتى وهم حسنيون » .

ثم يأتى على ذكر البيوت المشهورة قديماً ، فيقول عن بيت القطبى:

« ومن البيوت التى اشتهرت بالفضائل ثم انقرضت والدوام لله . بيت القطبى ، وقد اشتهروا باسم عمهم قطب الدين الشهير من أهل القرن العاشر ، صاحب التاريخ المسمى بالأعلام » إلى أن يقول : « وابتداء مجاورتهم بمكة فى أواخر القرن التاسع كما يشعر بذلك بعض أحوال ذكرها فى تاريخه المذكور . وكان مفتى مكة من طرف الدولة العثمانية ، وهو أول مفاتى مكة من الحنفية »

و بعد أن يستطرد إلى ذكر المشهورين من بيت القطبى يقول : « وكانت مساكن بيت القطبى بحارة الشامية عند الباب الصغير للمسجد الحرام الذى بالركن الغربى اليمانى من زيادة دار الندوة وكان اسمه باب الفهود . . ثم اشتهر بباب القطبى ، وهو إلى اليوم كذلك » .

ومن البيوت المنقرضة التى أشار إليها : بيت الطبرى و بيت المرشدى . و بيت ابن ظهيرة القرشى المخزومى ، وهو يقول عن بيت ابن ظهيرة إنه بيت قديم وكان منهم علماء وأفاضل فى المذاهب الأربعة وكانوا هم و بيت الطبرى و بيت النو يرى القائمين بالخطابة بالمسجد الحرام لا يشاركهم فيها غيرهم إلى حدود عام ألف و إحدى وأر بعين » .

وكثيرا ما نجد المؤلف يكتب سطراً واحداً عن أسرة من الأسر ثم يترك بياضاً بعده بمقدار صفحة كاملة أو صفحات ، مما يدل على

أنه كان ينوى إكمال الكتابة عن هذه الأسرة بعد أن يستوعب معلوماته عنها ، فهو يقول عن بيت الراضى مثلا : «ومن البيوت الشهيرة الآن بيت الراضى فان منهم شاعر زمننا المفلق » ثم يقف عند ذلك . . ولاشك أن إشارته هنا إنما هى إلى الشاعر الأشهر، الشيخ عثمان الراضى رحمه الله المتوفى سنة ١٣٣١ هـ

و بعد فان كثيراً من الأسر المعروفة فى الوقت الحاضر ، أشاد بها هذا الكتاب وكم كنا نود أن نورد نماذج من ذلك هنا لولا ضيق المجال .

مِن تاريخ الصَحافة في بلادنا

يقول المعنيون بتاريخ الصحافة ، إن أول صحيفة عربية صدرت فى العالم العربى هى صحيفة « الحوادث اليومية » التى أنشأها نابليون بونابرت فى القاهرة عام ١٧٩٩ م .

وأول صحيفة صدرت فى لبنان هى « حديقة الأخبار » عام ١٨٥٨ م ثم صدرت فى دمشق جريدة « سوريا » عام ١٨٦٥ م وفى العراق جريدة «الزوراء» عام ١٨٦٩م وفى اليمن جريدة « صنعاء » عام ١٨٧٩م وفى فلسطين جريدة « النفير العثمانى » عام ١٩٠٤ م .

فما هى أول صحيفة صدرت فى هذه البلاد ؟

فى بحث قيم للأستاذ البحاثة رشدى ملحس عن تاريخ الطباعة والصحافة فى الحجاز يقول : « إن أول صحيفة صدرت فى مكة هى جريدة « الحجاز » وهى جريدة أدبية علمية أسبوعية تصدر باللغتين العربية والتركية أصدرتها الحكومة العثمانية عام ١٣٠١ هـ واستمر صدورها إلى عام ١٣٣٤ ثم انقطعت عن الصدور حين خروج الحكومة التركية من هذه البلاد » .

ويقول الأستاذ : « وكان يتولى الإشراف عليها أى جريدة الحجاز هذه (مكتوبجى) الولاية واشترك فى تحرير قسميها العربى والتركى كل من أحمد جمال افندى منشىء ديوان الولاية ، واحمد حق أفندى

الكاتب فى الديوان المذكور والشيخ محمود شلهوب ، وغيرهم ، وكانت تطبع بأربع صفحات فى المطبعة الأميرية » اه .

ومن الواضح أن الحالة الفكرية العامة فى البلاد فى تلك الفترة لم تكن تسمح بوجود أكثر من هذه الصحيفة ، غير أنه منذ عام ١٣٢٧ ﻫ أى بعد الانقلاب العثمانى المشهور بدأت الصحف فى الظهور ، فصدرت فى تلك السنة فى جدة جريدة « الصفا » باللغة العربية غير أن هذه الصحيفة لم يصدر منها سوى عدد واحد فقط . . ثم صدرت بعدها فى جدة فى نفس السنة جريدة « الإصلاح » لصاحبها « راغب مصطفى توكل » وكان يتولى تحريرها صحفى لبنانى هو « أديب هراوى » واستمر صدورها بضعة أشهر ثم توقفت عن الصدور .

وفى عام ١٣٢٧ أيضا صدرت فى مكة جريدة يومية باسم (شمس الحقيقة » وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية مرة فى كل أسبوع مؤقتا لصاحب امتيازها ومديرها المسئول (محمد توفيق مكى) ونائب مديرها (إبراهيم أدهم) وكانت هذه الجريدة لسان حال جمعية الاتحاد والترقى بمكة ، وقد توقفت عن الصدور أيضا بعد أن ظلت تصدر بضعة شهور .

وصدرت فى المدينة المنورة أثناء الحرب العالمية الأولى جريدة باللغة التركية لم أطلع عليها ولا أذكر اسمها بالتأكيد . . .

هذه هى كل الصحف فى العهد العثمانى ، فإذا استثنينا أولاها وهى التى استمرت من حين صدورها إلى عام ١٣٣٤ — لأنها الجريدة الرسمية — تبين لنا أنه لم يكن هناك صحافة سوى ما ظهر منها خلال بضعة أشهر من عام ١٣٢٧ هـ ، ومع ذلك لم يكن لهذه الصحف أية قيمة أدبية أو سياسية ، أو أى أثر فى تكوين الوعى ، أو توجيه التفكير . .

ومما يلفت النظر أنه لم تظهر طيلة العهد العثمانى كله مجلة واحدة للعلوم والآداب وما من شك فى أن السبب فى ذلك يعود إلى قلة انتشار التعليم ، واعتماد المدرسة الرشدية — ولعلها المدرسة الحكومية الوحيدة فى مكة إذ ذاك . . — اعتمادها فى التعليم على اللغة التركية وحدها .

وإليك أنموذجا من تحرير صحافة ذلك العهد . . ننقله عن العدد الخامس من جريدة « شمس الحقيقة » الصادر فى يوم الثلاثاء غرة ربيع الأول عام ١٣٢٧ فقد جاء فى صدر العدد المذكور ؛ وفى مكان الإفتتاحية بعنوان « تنبيه » ما يأتى :

« ينبغى لمن شاء أن يكاتبنا فى موضوع أن ينبذ وراءه المصلحة الذاتية فإن الأفكار الراقية التى لا تعميها الأغراض الشخصية ولا الأطماع الذاتية تنظر بنور الله إلى مصلحة الوطن العمومية .

ألا ترى سيدنا موسى الكليم عليه السلام قال : « أخرقتها لتغرق أهلها » ولم يقل لتغرقنى نظر فى ذلك لغيره وقدمه على شخصه فى وقت

الغرق الذى لا يعرف الإنسان فيه إلا نفســه فليخش الله المكاتبون ، وليتق الله المحررون ، ولا يحرروا لجريدتنا سوى الحقيقة لأنها « شمس الحقيقة » ثم ليكتبوا فى دائرة واجبات الصحافة الحرة التى ذكرناها سابقا لأن جريدتنا تتنزه عن المثالبة وماضاها نسأل الله حسن التوفيق لسعادة الوطن » .

ولعل النبذة الآتية تدل على ما كانت عليه حالة التعليم فى الحجاز فى ذلك العهد فقد جاء فى هذه الصحيفة فى عددها الثانى عشر الصادر فى ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ هـ بعنوان : « هل ترقى الحجاز قبل السودان ؟ » مايأتى :

« ظهرت جريدة فى الخرطوم بالسودان تسمى « الخرطوم » غايتها أن تبذل السعى فى ترقى أبناء ذلك الوطن ففرح بها أهل السودان ونحن نتمنى لها دوام الانتشار ونستلفت أنظار أولى الأمر بالتسريع فى أمر ترقى الحجاز من تأسيس المكاتب — يقصد المدارس — وغير ذلك فان دوائر الحكومة لو احتاجت إلى كاتب للزم جلبه من خارج الولاية . أهلك الله الاستبداد ما أشد تدميره ! »

و بمقارنة صحيفة شمس الحقيقة هذه . . بصحيفة الإصلاح التى كانت تصدر فى جدة تبدو هذه الأخيرة أرقى من حيث التحرير ومن حيث

الطباعة عن زميلتها الأولى - بل ومن صحيفة الحجاز أيضا . الصحيفة الرسمية للحكومة التركية . .

ولم أطلع على العدد الوحيد الذى صدر فى جدة من جريدة «الصفا» وربما كانت هذه الصحيفة تشارك زميلتها الإصلاح من حيث رونق الطباعة واتساق التحرير .

والواقع أنه لم يكن غريباً أن تكون صحافة بلادنا فى ذلك العهد بدائية إلى هذا الحد . . . لم يكن غريبا أن يكون هذا حال الصحافة فى بلاد لم يكن فيها مدارس للتعليم سوى مدرسة واحدة للحكومة يتلقى التلاميذ فيها قشوراً من المعلومات الأولية باللغة التركية وسوى مدرسة أهلية دينية . . هى المدرسة الصولتية .

***

وهكذا . . . !

وهكذا ظل الحجاز ، وظلت جميع أنحاء الجزيرة العربية طيلة العهد العثمانى . . . لاصحافة ولا مدارس ولا تعليم بالمعنى الصحيح لكلمتى مدارس وتعليم !

وكانت النهضة العربية فى عام ١٣٣٤ هـ فيصلا بين عهدين : عهد « تابعية عثمانية » ، وعهد استقلال.. إلا أن الواقع أثبت مع الأسف الشديد أن تلك النهضة كانت «ضئيلة الأثر» من ناحيتيها الإجتماعية والثقافية ،

ولهذا كان أثرها ضئيلاً أيضاً فى الميدان الصحفى . . وقد صدرت جريدة « القبلة » فى أولى سنوات النهضة و بتعبير أدق سنة ١٣٣٤هـ وكان يساهم فى تحريرها نخبة من صفوة أدباء العرب يكفى أن نذكر منهم السيد فؤاد الخطيب الشاعر الكبير المعروف ؛ والسيد محب الدين الخطيب .وأحمد شاكر الكرمى وغيرهم . . . والحق أقول أنه كان يمكن أن يكون لجريدة القبلة إذ ذاك شأن مرموق فى عالم الصحافة العربية لولا بعض عوامل وقفت بها فى بداية الطريق . .

وصدرت فى عام ١٣٣٨ جريدة باسم الفلاح لصاحبها السيد عمر شاكر ، وكانت هذه الصحيفة تصدر فى سوريا قبل دخول الفرنسيين إليها فهاجر بها صاحبها من سوريا إلى الحجاز .

وفى عام ١٣٣٨ أيضاً ؛ صدرت المجلة الزراعيــة وهى مجلة شهرية كان يتولى تحريرها طلاب المدرسة الزراعية بمكة ، وقد ظهرت الأعداد الثلاثة الأولى من هذه المجلة فى صورة لا بأس بها من حيث الإنشاء والتحرير فلو أن هذه المجلة أتيح لها أن تستمر ، بل لو أنه أتيح للمدرسة الزراعية التى كانت تقوم باخراجها أن تستمر لـكانت الحال غير الحال ولـكن . .

وفى عام ١٣٤٣ صدرت فى جدة جريدة « بريد الحجاز » ثم توقفت عن الصدور فى نفس العام بعد أن صدر منها (٥٢) عدداً وقد

كانت هذه الصحيفة أسبوعية وهى آخر صحيفة ظهرت فى عهد الحكومة الهاشمية .

* * *

وفى ١٥ جماد الأولى سنة ١٣٤٣ فى أول عهد حكومة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز صدر العدد الأول من جريدة « أم القرى » ، وكان يرأس تحريرها فى أول ظهورها معالى الأستاذ الشيخ يوسف ياسين ثم الأستاذ رشدى ملحس ثم تولى تحريرها فترة من الزمن المرحوم محمد سعيد عبد المقصود ؛ فالأستاذ عبد القدوس الأنصارى ويرأس تحريرها الآن الأستاذ الطيب الساسى .

ثم صدرت بعد ذلك مجلة الاصلاح عن شعبة الطبع والنشر بمديرية المعارف فى عام ١٣٤٧ وكان يديرها الأستاذ محمد حامد الفقى وهى مجلة دينية علمية أخلاقية كانت تصدر مرة فى الشهر ، ثم مرتين فى الشهر ، ثم توقفت عن الصدور فى عام ١٣٤٩ هـ .

وفى عام ١٣٥٠ صدرت جريدة «صوت الحجاز» لصاحب امتيازها الوجيه الشيخ محمد صالح نصيف ورئيس تحريرها الأستاذ عبدالوهاب آشى ، وقد تعاقب عليها فيما بعد رؤساء تحرير عديدون أذكر منهم الأساتذة «أحمد إبراهيم الغزاوى» و «السيد حسن الفقى» و «محمد سعيد العامودى» و « محمد حسن عواد » و « أحمد السباعى » و «محمد على رضا» و « محمد على مغربى » وغيرهم ثم انتقل امتياز هذه الصحيفة فى عام ١٣٥٤ إلى

شركة الطبع والنشر العربية[1] وظلت تصدر أسبوعياً ، ثم مرتين في الأسبوع ، ثم توقفت عن الصدور في بعض سنوات الحرب الأخيرة بسبب قلة الورق ، ثم عادت إلى الصدور أسبوعياً عام ١٣٦٥ باسم « البلاد السعودية » وتولى » رئاسة تحريرها الأستاذ عبد الله عريف

وقد تمكنت جريدة البلاد السعودية من الصدور مرتين في الأسبوع وأخيراً ثلاث مرات في الأسبوع وهي في طريقها إلى الصدور يوميا في القريب العاجل إنشاء الله[2]

وقد راجت هذه الصحيفة في السنوات الأخيرة رواجاً أكثر من أي عهد مضى ، وأصبح لها قراء من كل الطبقات وهي لا ينقصها إلا زيادة العناية بالأخبار الخارجية والمحلية ؛ ثم الإقلال من المواضيع الأدبية بقدر الامكان لعلاقة هذه المواضيع بالمجلات أكثر من علاقتها بالصحف الأخبارية . .

***

وفي عام ١٣٥٥ هـ صدرت مجلة « المنهل » في المدينة المنورة وهي مجلة شهرية للآداب والعلوم لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري ،وهي ثانية مجلة شهرية صدرت في هذه البلاد بعد

---

(١) يرأس هذه الشركة معالي الأستاذ الشيخ محمد سرور الصبان مستشار جلالة الملك « سعود » المعظم ووزير الدولة ، وعند هذه الشركة مشاريع صحفية عديدة يرجى أن تتحقق تباعاً انشاء الله

(٢) صدرت يومية ابتداء من شهر ربيع الثاني من هذه السنة ١٣٧٣ هـ

المجلة الزراعية التى أسلفنا الإشارة إليها وقد تطورت هذه المجلة بحيث أصبحت لا تقل فى مادتها وفى أسلوبها عن مثيلاتها من المجلات الأدبية الراقية فى العالم العربى ؛ وأصبحت تصدر فى مكة منذ عام ١٣٦٥ ﻫ

ومجلة المنهل تعتبر المجلة الأدبية الأولى فى المملكة السعودية .

وفى عام ١٣٥٥ صدرت جريدة المدينة المنورة لصاحبيها الأستاذين الشقيقين على وعثمان حافظ وهى جريدة أسبوعية نشيطة تعنى بالأخبار أكثر من عنايتها بالمقالات والبحوث ؛ وبالأخبار العربية والإسلامية على وجه الخصوص .

وكانت تصدر قبل الحرب الأخيرة مجلة النداء الإسلامى لصاحبها الأستاذ مصطفى اندرقيرى ثم توقفت عن الصدور .

ثم صدرت فى غرة رجب من عام ١٣٦٦ مجلة الحج وهى مجلة شهرية إسلامية تتولى إصدارها إدارة شؤون الحج وكان يرأس تحريرها فى أولى سنواتها الأستاذ السيد هاشم زواوى ؛ ثم كاتب هذه السطور منذ أول عام ١٣٧٠ ﻫ وتعنى هذه المجلة بالمواضيع الإسلامية والعربية بصورة عامة ثم بكل ما يتصل بشئون الحج والحجاج [١] .

---

(١) ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نشير إلى ظهور مجلة جديدة راقية وتلك هى « اليمامة » لصاحبها ومؤسسها الأديب الباحث المعروف الأستاذ حمد الجاسر واليمامة تصدر فى الرياض وهى أسبوعية أدبية علمية غير أنها تصدر الآن مرة فى الشهر موقتا وقد كانت الأعداد التى صدرت منها حافلة بأجود المقالات والبحوث فى مختلف موضوعات اللغة والدين والأدب والتاريخ وبأقلام سعودية ناضجة . . مما يبشر بأن لهذه المجلة الناهضة مستقبلا مجيداً إن شاء الله

وبعد . . . فهذه إلمامة موجزة عن تاريخ الصحافة فى هذه البلاد ؛ ولئن كان من واجبنا أن نقرر هنا أن صحافتنا فى كل من عهديها التركى والهاشمى لم يكن لها أثر يذكر . . فان من واجبنا أيضا أن نقول أنها قد بدأت الآن تشق الطريق . . . والأمر الذى لا يختلف فيه إثنان أنها فى حاضرها قد أصبحت شيئا آخر يختلف كل الأختلاف عما كانت عليه فيما مضى . .

والأمل بعد وفى هذا العهد الباسم السعيد عظيم فى أن تخطو صحافتنا خطوات واسعة وسريعة . . نحو القوة والأزدهار !

هل الحروب تطوى الحضارات

لعل لهذا الاستفتاء[1] الذى شاءت مجلة المنهل أن توجهه إلى الأدباء، فى هذه الأيام مغزاه الخاص الذى إن دل على شىء فانما يدل على فداحة ما يحسه الناس من خطر الحرب العظيم ، وعلى أهمية ما يقدرونه لنتائجها من تأثير حاسم فى سير الحضارات وفى مقدرات الشعوب .

وما من شك فى أن للحروب كائنة ما كانت تأثيرها لا بالنسبة إلى الجموع المتقابلة فى الجبهات والميادين فحسب و إنما بالنسبة إلى من سواهم أيضاً وأعنى أولئك الذين يسمونهم فى لغة هذا العصر «السكان المدنيين» ومن الواضح الذى لايحتاج إلى دليل أن الغالب والمغلوب متساويان أمام هذه التأثير !

فأول ظاهرة من ظاهرات هذا التأثير وأهمها ، هو ما يتكبده كل من الفريقين المتحاربين من خسارة مؤلمة فى الأرواح ، فمهما كانت الحرب المشتبكة بين فريقين من الناس بسيطة جداً ، أو مهما كانت (بدائية)

فالذى لا شك فيه أن خسارة الأرواح فيها محققة .

***

---

(١) كتب جوابا لاستفتاء مجلة المنهل ونشر فى عددها الصادر فى جمادى الآخرة سنة ١٣٥٩ .

الحرب شيء بغيض كل البغض لدى كل النفوس !

حتى أولئك السباقون إلى ميادينها ... حتى أولئك الذين إذا ما حمى الوطيس يظهرون ما يظهرون من بسالة و إقدام ، ومن تضحية بالنفس ، و إقبال على الموت ، حتى أولئك الأبطال بحق إنما يخوضون غمار الوغى اضطراراً لا اختياراً . . . و إنما يقدمون إلى الحرب فى شجاعة ورغبة وحماس ، لاحباً فى الحرب ، وانما لأن السبب أو الفكرة أو بعبارة أخرى : الإيمان الذى يدفعهم إليها يحتم عليهم هذا الإقدام وهذه الرغبة وهذا الحماس . . . أما شعور البغض للحرب من حيث هى فأحسب أنه ما يزال كامناً فى نفوسهم كمونه الذى لا يمكن أن يحول . . . ذلك لأن نفوسهم لم تخرج عن كونها نفوسا إنسانية لديها من الأحساس بحب الحياة . . مايركز فيها هذا الشعور ، وسرعان ما ينتهى مايخوضون غماره من حرب ، وتنتهى دوافع ذلك ودواعيه ، حتى ينكشف وجه الحق ، و يتجلى للعيان هذا البغض الغريزى المكبوت و يطفو من عقل الإنسان الباطن ، إلى عقله الواعى ؛ هذا العقل الذى تعود دائما أن ينظر إلى الأشياء كما هى ، على ضوء من التأمل والتفكير .

الحرب شيء بغيض كل البغض لدى كل النفوس !

قال عنها أشهر قواد الحروب فى العصور الحديثة نابليون بونابرت: « إنها عمل بربرى وحشى » وقال عنها قائد شهير آخر : «لوشهدت يوماً

من أيام الحرب لتوسلت إلى الله أن لا يريك يوماً ثانياً منها » وقال عنها هذا القائد أيضا : « ليس أفظع من الإنكسار فى المعركة إلا الانتصار فيها » ، وقال عنها لويس نابليون : « ما الحرب إلا أعمال بربرية منظمة وهى من بقايا الهمجية مهما اختلفت مظاهرها وأشكالها » .

الحرب شىء بغيض كل البغض لدى كل النفوس !

ولكنها ماذا . . . ؟

إنها الشر الذى لابد منه فى هذه الحياة . . وقد شاء الله بحكمته السامية أن تكون الحياة ميدانا للنقائض والاضداد ،ليتحقق فيها التوازن ويعمل عمله ناموس التنازع على البقاء ، ويتم التمايز بين الشىء ونقيضه ، بين الخير والشر ، بين الكمال والنقص ، بين القوة والضعف ، بين الفضيلة والرذيلة ؛ بين الأمن والخوف ، بين الشدة والرخاء ؛ إلى آخر ماهنالك من الاضداد والنقائض !

لابد من وجود الحرب إذن وليكن مايكون !

لابد من وجود الحرب إذن بالرغم من شعور البغض العميق بإزائها ، وبالرغم عما تجره وراءها من أخطر النتائج ، وأشد الأضرار ، وبالرغم من تحديها لهذا الانسان فى أسمى ما يقدسه ويحرص عليه ، من مثل عليا ، ومن أفكار وفلسفات . . ومن حضارة وعمران ، وعلوم وفنون .

ولكنا نسأل هنا ، متابعين فى هذا السؤال مجلة المنهل الغراء : ما هو مدى تأثير الحروب فى الحضارة يا ترى ؟ !

وهل صحيح أن الحروب تطوى الحضارات ، أم أن الأمر على النقيض ؟ .

أما أن يكون الرد هنا إيجابا ، فقد لايعدم الباحث فى هذا الصدد ، أدلة من التاريخ يستخرجها « لأول وهلة » من هنا ومن هناك ، لإثبات الدعوى ، وكسب القضية !

هو ذا تاريخ الحروب جميعها فى كافة العصور القديمة والوسيطة والحديثة ، وفى الشرق وفى الغرب ماثل أمامنا ، هو ذا تاريخ الأمم المتحضرة التى خلدها التاريخ من يونانية ورومانية وفينقية وقرطاجنية واسلامية وسواها ، فماذا ليت شعرى سيجد الباحث فى هذا التاريخ من أدلة إفناء الحروب للحضارات ؟

الواقع أن تاريخ كل هذه الشعوب الشهيرة مملوء بالحروب و بالدماء ، والواقع أن بعضا من هذه الشعوب « فينيقيا » و « قرطاجنة » قد كان من نتائج الحروب المتتابعة عليها أن قضت عليها القضاء الأخير وطوت حياتها طياً من هذا الوجود ...

ولكن أحقا أن ما دونه التاريخ من أصول الحضارتين الفينيقية والقرطاجنية قد قُضِي عليه أيضا وطوته تلك الحروب طيا ، وأصبح فى خبر كان ؟

وهل حقا أن حضارة اليونان القديمة قد طويت من الوجود منذ

اليوم الذى غُلب فيه اليونانيون على أمرهم ، ودخلوا تحت سلطة روما بعد أن أنهكتهم حروبهم المتوالية مع الرومانيين ؟

وحضارة الرومان ، وحضارة مصر فى العصر القديم ، ثم حضارة الاسلام فى العصر الوسيط كل هذه الحضارات العظيمة قد أصيبت بأضرار من الحروب ، ولكن هل طوت كل هذه الحروب كل تلك الحضارات ؟!

لقد أضرت الحروب حقا بكل تلك الأمم ، وألحقت بها من فادح النكبات ماقضى على البعض منها نهائيا ، وما قضى على البعض الآخر منها بعض الشىء ، وليس من شك فى أن أعظم ما أصيبت به هذه الشعوب الأخيرة جميعاً ، هو أن الحروب التى نكبت بها قضت فى طليعة ما قضت عليه ؛ على أهم آثار حضارتها ومظاهر عمرانها ؛ وهذا هو وحده ما عنيناه حينما قلنا إن الباحث قد لا يعدم دليلا من التاريخ على إثبات الدعوى التى تقول بأن الحروب لابد أن تطوى الحضارات .

ولكننا بعد أن نفكر قليلا سنرى أن القضاء على آثار حضارة ما ، ليس معناه القضاء الأبدى على أصول تلك الحضارة . إن حضارة أى شعب لابد أن تنتقل إلى الشعوب الأخرى ، سواء أظل هذا الشعب عائشا فى الوجود أم أصبح من تلك الشعوب التى طواها التاريخ ، إن حضارات مصر وفينقيا وقرطاجنة واليونان والرومان ؛ ثم حضارة

الاسلام فى عصره الذهبى ؛ ما زالت أصولها قائمة إلى يومنا هذا وهل حضارة أوربا الراهنة إلا مزيج من كل تلك الحضارات ؟!

قد تختلف حضارة اليوم عن كل ما تقدمها من الحضارات ، وقد تمتاز عليها بشتى المظاهر والعلوم والفنون ، ولكنها قد ضمت ولا جدال بين شتى مظاهرها وعلومها وفنونها خلاصة من كل حضارة سابقة ، وقد يكون هذا وحده هو سر تفوقها المشاهد الملموس !

وقد تطوى الحروب أمماً وشعوبا ، وقد تطوى مع تلك الشعوب والأمم ، ماقد يكون فى أوطانها من مظاهر حضارتها فى الوقت الذى تكون الإنسانية قد هضمت فيه أصول تلك الحضارة ، وأخذت منها عنصرها الجوهرى ، وفى الوقت الذى تغدو فيه تلك الحضارة ميراثاً للعالم أجمع ، وملكا لكل أمة فى الوجود .

وكما أن الحروب لا يمكن أن تطوى الحضارات فهى أيضا لا يمكن أن تعوق سيرها واستمرارها وتقدمها ، بل أنه فى كثير من الظروف تكون الحروب أكبر معوان لانتشار الحضارة . . . إن الحاجة أم الاختراع كما يقولون ؛ والحروب بطبيعتها تشجع نواحى الاختراع والابتكار فى كل شىء . الحروب تدعو بطبيعتها إلى تقدم الصناعات الحربية على اختلاف أنواعها ، وإلى التفنن والاكثار فيها من كل جديد ، وتقدم هذه الصناعات يدعو بطبيعة الحال إلى تقدم سائر فروع الصناعات الأخرى .

والحروب بطبيعتها أكبر مساعد على تقدم الزراعة وانتشارها ، لأن الأمة المحاربة أو المستعدة للحروب تحاول دائما و بكل الوسائل أن تزرع أكبر مساحة ممكنة من أراضيها لـكى لاتبقى إذا جَدَّ الجد . . عالةً على سواها ولـكى تغدو قادرة على تموين بلادها ؛ وعلى الصمود أمام أى حصار يوجهه إليها الأعداء !

وكلما استمر تقدم الفنون الصناعية والزراعية استمر تقدم العلم الذى هو العنصر الهام لدى كل الحضارات !

والحروب أيضاً تساعد بطبيعتها على سرعة انتقال الحضارة من بلاد إلى بلاد . . . ذلك لأن اختـــلاط كل فريق من المتحاربين فى الميادين أو فى بلاد الفريق الآخر يدعو إلى هذا الانتقال . .

وفى تاريخ الحروب الإسلامية الأولى ؛ ثم فى تاريخ الحروب الصليبية المشهورة ؛ أعظم الشواهد على هذا الذى نقول . . .

حروب الإسلام وفتوحاته الأولى ساعدت من غير شك على اقتباس الحضارات التى كانت قائمة فى البلدان التى غزاها المسلمون ، ومن هذا الاقتباس ومن هذا الامتزاج والتصاقب بين عناصر تلك الحضارات و بين الروح الإسلامية والتعاليم الإسلامية ، والعادات الإسلامية ... تـكونت تلك الحضارة الإسلامية العظيمة التى شع نورها فى العالم فى الوقت الذى كانت فيه سائر الممالك الأخرى تتخبط فى ليل دامس من الجهل والاضمحلال . .

والحروب الصليبية ساعدت ولا جدال على اقتباس أوربا لأصول الحضارة الإسلامية . إن تلك الحروب الطاحنة المدمرة ، تلك الحروب التى كانت بلاءاً على الشرق وعلى العرب وعلى الإسلام كانت فى الوقت نفسه أول عوامل انتقال الحضارة من الشرق إلى الغرب ، وكانت السبب المباشر لكل ما نشاهده اليوم من مظاهر الحضارة العصرية وتقدمها واتساعها .

***

و بعد فهذا هو تأثير الحروب فى الحضارات !

لايمكن أن تطوى أولاهما أخراهما بأية حال من الأحوال .

ولا يمكن أن تعوق أولاهما أخراهما من البقاء والاستمرار ؛ وفوق هذا جميعه نستطيع أن نزعم أن فى بقاء الحروب واستمرارها بقاءاً واستمراراً لكل الحضارات !

وهذه هى الحقيقة المرة ؛ مع الأسف الشديد ! !

أو هذه هى المشكلة . . . كما يقول شاعر الانكليز الأكبر . . . شكسبير !

الفهـــرست

قريباً . . . للمؤلف

١ — مقالات وكلمات . . . . . .

٢ — الذكرى : ديوان شعر . . . . .

٣ — شعراء من الحجاز : تراجم

٤ شعر وأقاصيص أخرى . .

ظهـــر حديثا

أمي - والعم سحتوت

للأستاذ عبد الله عبد الجبار

« أمي » وهو عنوان يهز وجدان كل إنسان بما يطويه من ذكريات ، والذكريات التي تضمنتها القصة في هذا هي ذكريات الواجب والتضحية والبذل ، وتستمد القصة حوادثها في هذا كله من مأساة فلسطين الدامية ، على أن القصة لا زالت كما يقول المؤلف تنتظر فصلها الختامي الذي يصر البطل على أن يكتبه بدم الأعداء .

وأما القصة الثانية ، فهي قصة « العم سحتوت » وهي صورة إنسانية رائعة تقوم فكرتها على معنى العدالة الاجتماعية ومناط هذه العدالة بأداء الواجب لغير غاية ، وتجري وقائع القصة في أسلوب الحوار والتمثيل وهو حوار يدل على فهم دقيق للشخصيات وللخلجات النفسية .

والقصتان بعد هذا كله صورة حية ناطقة للبعث الأدبي في موطن العربية الأول .

وقريبـــاً :

١ — قصة الأدب في الحجاز .

٢ — سائق البريد . وقصص أخرى .

(مجموعة قصصية حجازية)

بقلم الأستاذ

محمد فهمي عبد اللطيف

الشهير بالجاحظ

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م